

"هيا بنا نكون صالحون مصلحون"

ما هي آداب النصيحة ، ما هي ضوابط و حدود الخلاف و الجدال و الهجر ؟

كيف أعامل الناس بحسن الأدب ؟

ما هي حقوق المسلمين ؟

بيتي كيف اصلحه ؟

من تصاحب ؟

الشيخ /شعبان عفيفى

من إصدارات موقع نصرة رسول الله "صلى الله عليه وسلم"
Rasoulallah.net



المحتويات



من إصدارات موقع نصرة رسول الله "صلى الله عليه وسلم"

Rasoulallah.net

المقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده و نستعينه ، و نستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادي له ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمدًا عبده و رسوله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) آل عمران ١٠٢ ، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) النساء ١ ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) الأحزاب ٧٠ - ٧١ .

أما بعد ، فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله ، و أحسن الهدي هدي محمد ، و شر الأمور محدثاتها ، و كل محدثة بدعة و كل بدعة ضلالة ، و كل ضلالة في النار .

قال تعالى : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ) . آل عمران ١٠٤ - ١٠٨

رأيت الدهر منقلب يدور .... فلا حزن يدوم و لا سرور
رأيت الناس كلهم سكارى .... و كأس الموت بينهم يدور
فوا عجبي لمن يسهو و يلهو .... و يعلم أن مسكنه القبور
فكم بنت الملوك لها قصور .... فما بقت الملوك و لا القصور

كانت بداية هذه السلسلة الطيبة فكرة من أخونا الكريم **الأستاذ / محمد عاشور** مؤسس و مدير **موقع نصرة رسول الله صلى الله عليه و سلم** ، و أيضًا كان هو صاحب اختيار اسم (صالحون مصلحون) فكانت الفكرة تدور حول كيف يتحول الصالح إلى مصلح ؟ ، و كيف تتحرك الهمم لنصرة دين الله و رسوله ؟ ، و كيف نقضي على السلبية التي انتشرت بين المسلمين ؟ ، و يكون لكل مسلم دور فعال في نصرة نبيه محمد صلى الله عليه و سلم ، و ما هو الطريق الواضح إلى أن يكون الإنسان صالحًا مصلحًا ؟ .

و من هنا كانت هذه السلسلة التي حاولنا فيها أن نبذل كل الجهد حتى تخرج بهذا الشكل و حاولنا قدر المستطاع التبسيط و الاختصار و الاقتصار على ما يفيد ، داعين الله سبحانه و تعالى أن يتقبل منا هذا الجهد البسيط و أن يجعله في ميزان حسناتنا يوم القيامة ، و أن يبيض وجوهنا يوم تبيض وجوه و تسود وجوه .

فهيا بنا نتحول إلى صالحون و مصلحون .

شعبان عفيفى
القاهره فى ١٤٣٢ هـ

البداية أهمية وجود الصالحين في المجتمع :

صالحون مصلحون كلمة جميلة تشعر الإنسان بالأمان .
لكن هل كل الصالحين مصلحين ؟ ، و هل كل المصلحين مصلحين ؟

و الصالحين صفة مشتركة بين جميع الأنبياء ؛

- قال الله في إبراهيم عليه السلام : (وَ لَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) البقرة ١٣٠ .
- و يحى عليه السلام : (سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) آل عمران ٣٩ .
- و عيسى عليه السلام : (وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ مِنَ الصَّالِحِينَ) آل عمران ٤٦.

- و الصالحين في ولاية الله ؛ قال تعالى : (إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) الأعراف ١٩٦.

- و تمنى سليمان أن يكون مع الصالحين : (وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) النمل ١٩ .
- و كانت أمنية يوسف عليه السلام : (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) يوسف ١٠١ .

- و جعل الله الدخول في زمرة الصالحين جزاء و ثوابا لعمل الخير و الإيمان ، فقال تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) العنكبوت ٩ .
- و قال في يونس عليه السلام : (فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) القلم ٥٠ .

إذا الصالحين هم الأنبياء و من تبعهم ؛ لكن هل كانوا صالحين فقط ؟ ، نقول : لا ، بل كانوا صالحين مصلحين ، لأن الإصلاح هو مهنة الأنبياء عليهم السلام .

و قد فرق الله بين المفسدين الذين يدعون أنّهم مصلحين ، فقال : (وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) البقرة ١١ .

و أن يكون الإنسان صالح فقط لا يكفي .

عَن زينبَ بنتِ جحش أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ دخل يَوْمًا فَزِعًا يَقُولُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَيلٌ للعرب مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ » ، وَ حَلَّقَ بِأُصْبَعَيْهِ : الْإِبْهَامَ وَ الَّتِي تَلِيهَا. قَالَتْ زَيْنَبُ : فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَ فِينَا الصَّالِحُونَ ؟ ، قَالَ: « نَعَمْ إذا كثُر الخَبَثُ » . مُتَّفَق عَلَيْهِ

و الخبث لا يكثر إلا لغياب المصلحين ، الصالحين كثير و كل في شأنه و الخبث يكثر و الشيطان يلعب دوره ، لكن وجود المصلحين أمان من العذاب و الهلاك ، قال تعالى : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) هود ١١٧ .

فكلما كثر عدد المصلحين كلما كثر الخير و الأمان ، فهيا بنا إخوة الإسلام نغير من أنفسنا و من مجتمعنا بأن نكون صالحون مصلحون .

اعلم أخي الحبيب أن الطريق مليء بالعقبات و الصعاب ، فاجعل زادك في هذا الطريق تقوى الله و الصبر ؛ قال تعالى :

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) آل عمران ١٨٦ .

و بإذن الله ستكون الموضوعات على هذا الترتيب :

يبدأ المسلم في اختيار من يصاحب ، ثم ينظر في حال بيته و يصلحه أولًا قبل أن يصلح بيوت الناس ، ثم ينظر فيما عليه أن يعامل به الناس من حسن الأدب و حقوق المسلمين ، ثم يبدأ في معرفه آداب النصيحة ، فإذا نصح الناس سيتعرض للجدال والخلاف و الهجر ، فما هي ضوابط و حدود الخلاف و الجدال و الهجر ؟ .

و على الله قصد السبيل .

الأدب وحسن الخلق

إنّ الحمد لله، نحمده و نستعينه ، و نستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادي له ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمدًا عبده و رسوله .
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) آل عمران ١٠٢ ، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) النساء ١ ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) الأحزاب ٧٠ - ٧١ .

أما بعد ، فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله ، و أحسن الهدي هدي محمد ، و شر الأمور محدثاتها ، و كل محدثة بدعة و كل بدعة ضلالة ، و كل ضلالة في النار .

الأدب و حسن الخلق و حقوق المسلمين ، و لا يكون المرء صالحًا مصلحًا إلا إذا عرف هذه الثلاث .

أولا : الأدب وحسن الخلق :

يزين الغريب إذَا مَا اغترب ... ثَلاث فمنهن حسن الأدب
وثانيه حسن أخلاقه ... وثالثه اجتناب الريب

« نحن إلى قليل من الأدب أشدّ حاجة إلى كثير من العلم » ابن المبارك رحمه الله - مدارج السالكين .

« يا بني اجعل عملك ملحاً و أدبك دقيقاً » رويم بن أحمد البغدادي لابنه .

« من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن ، و من تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ، و من تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة « عبد الله بن المبارك رحمه الله - مدارج السالكين .

قال مالك رحمه الله: « كانت أمي تعمّمني ، و تقول لي : اذهب إلى ربيعة فتعلّم من أدبه قبل علمه » .
« علمٌ بلا أدب كنار بلا حطب ، و أدبٌ بلا علم كروحٍ بلا جسم » أبو زكريا العنبري رحمه الله .

و قال العلماء : « من قصر به حسبه نهض به أدبه » .

لذلك قيل :

كن ابن من شئت و اكتسب أدبًا محموده يغنيك عن النسبا
ليس الجمال ثيابًا تزينه إنَّ الجمال جمال العلم و الأدبا
و ليس الفتى من قال هذا أبي و هذا عمي لكنَّ الفتى من قال ها أنا ذا

و قال ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين : « أَدَبُ الْمَرْءِ : عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ . وَ قِلَّةُ أَدَبِهِ : عُنْوَانُ شَقَاوَتِهِ و بَوَارِهِ ؛ فَمَا اسْتُجْلِبَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ بِمِثْلِ الأَدَبِ ، وَ لَا اسْتُجْلِبَ حِرْمَانُهُمَا بِمِثْلِ قِلَّةِ الأَدَبِ » .
فَانْظُرْ إِلَى الأَدَبِ مَعَ الْوَالِدَيْنِ ، كَيْفَ نَجَّى صَاحِبَهُ مِنْ حَبْسِ الْغَارِ حِينَ أُطْبِقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ ! ، وَ الإِخْلَالُ بِهِ مَعَ الأُمِّ - تَأْوِيلًا وَ إِقْبَالًا عَلَى الصَّلَاةِ - كَيْفَ امْتُحِنَ صَاحِبُهُ بِهَدْمِ صَوْمَعَتِهِ وَ ضَرْبِ النَّاسِ لَهُ ، وَ رَمْيِهِ بِالْفَاحِشَةِ .!
وَ تَأَمَّلْ أَحْوَالَ كُلِّ شَقِيٍّ وَ مُغْتَرٍّ وَ مُدْبِرٍ ، كَيْفَ تَجِدُ قِلَّةَ الأَدَبِ هِيَ الَّتِي سَاقَتْهُ إِلَى الْحِرْمَانِ .
وَ انْظُرْ قِلَّةَ أَدَبِ عَوْفٍ مَعَ خَالِدٍ ، كَيْفَ حَرَمَهُ السَّلَبَ بَعْدَ أَنْ بَرَدَ بِيَدَيْهِ .
وَ انْظُرْ أَدَبَ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ ، أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ : مَا كَانَ يَنْبَغِي لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ؛ كَيْفَ أَوْرَثَهُ مَقَامَهُ وَ الإِمَامَةَ بِالأُمَّةِ بَعْدَهُ .
فأورث هذا الأدب مع رسول الله صلى الله عليه و سلم الإمامة ، فكان تأخر أبو بكر وراء النبي صلى الله عليه و سلم تقدمًا له على كل الأمة .
قال الإمام البوشنجي الفقيه المالكي : « من أراد العلم و الفقه بغير أدب فقد اقتحم أن يكذب على الله و رسوله » سير أعلام النبلاء للذهبي .
و أورد الإمام بن الجزري في غاية النهاية في طبقات القُراء عن ابن المبارك رحمه الله تعالى قال : « طلبت الأدب ثلاثين سنة ، و طلبت العلم عشرين سنة ، و كانوا يطلبون الأدب ثم العلم » .
أورد ابن الجوزي رحمه الله تعالى في صفة الصفوة عن ابن المبارك قال : « كاد الأدب يكون ثلثي العلم » .
و أورد ابن مفلح رحمه الله تعالى في الآداب الشرعية ، عن ابْنُ الْمُبَارَكِ قَالَ : « لَا يَنْبُلُ الرَّجُلُ بِنَوْعٍ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُزَيِّنْ عَمَلَهُ بِالأَدَبِ ؛ و قال أيضاً : قَالَ لِي مَخْلَدَةُ بْنُ الْحُسَيْنِ : « نَحْنُ إلَى كَثِيرٍ مِنْ الأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إلَى كَثِيرٍ مِنْ الْحَدِيثِ » .

والأدب نوعان :

١- نوع فطري .
٢- نوع كسبي ، بالتربية و التعود .

أما **الفطري** ، فقد جاء في حديث النبي صلى الله عليه و سلم :
قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ لِلأَشَجِّ أَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ :« إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ : الْحِلْمُ وَ الأَنَاةُ » رواه مسلم.
و في رواية أبو داوود ، حدثنا محمد بن عيسى بن الطَباع ، حدثنا مطر بن عبد الرحمن الأعنق ، حدثتني أم أبان بنت الوازع بن زارع عن جدها زارع - و كان في وفد عبد القيس - ، قال : « لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبل يد النبي صلى الله عليه وسلم و رجله ، قال : و انتظر المنذر الأشج حتى أتى عيبته فلبس ثوبيه ، ثم أتى النبي صلى الله عليه و سلم ، فقال له : إن فيك خلتين يحبهما الله الحلم و الأناة ، قال : يا رسول الله ، أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما ؟ ، قال : بل الله جبلك عليهما ، قال : الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله و رسوله » حسنه الألباني في صحيح سنن أبو داوود .

و أمّا **الكسبي** : فيكون بالتربية ، كما في حديث عمر ابن أبي سلمة :
كان عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ ، يَقُولُ: كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، وَ كَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « يَا غُلَامُ، سَمِّ اللَّهَ ، وَ كُلْ بِيَمِينِكَ ، وَ كُلْ مِمَّا يَلِيك » ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ . متفق عليه
روى البخاري عن أَبُو بُرْدَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ ، فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ، وَ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَ تَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ » .
قال ابن عمر رضي الله عنهما : « أدب ابنك ، فإنَّك مسئول ماذا أدبته و ماذا علمته ، و هو مسئول عن بره بك و طواعيته لك » .
و الإنسان مثل الأرض ، لا يخرج ما بداخله من خير إلا بالفلاحة و التعب و الجهد ، و كذلك الأدب لا يكون إلا بالتعب و الجهد .

و من أهمية الأدب ، فقد ألفَّ البخاري كتابًا سماه « الأدب المفرد » ، و الخطيب البغدادي ألفَّ كتابًا في آداب طالب العلم ، و أيضًا ابن مفلح .

و كان لقب الإمام الحافظ ابن أبي الدنيا « مؤدب أبناء الخلفاء » ، و كان الخليفة يأتي بأفضل المؤدبين لأبنائه حتى يتعلموا الأدب قبل أن يحكموا الأمة .
و ذكر الراغب الأصفهاني : أنَّ المنصور بعث إلى أحد بني أمية في الحبس ، قال : ما أشد ما مر بكم في هذا الحبس ؟ ، قالوا : ما فقدنا من تربية أبنائنا .

قال ابن المبارك : « إذا وُصِفَ لي رجلٌ عنده علم الأولين و الآخرين ، لا أتأسف على فواته ، و إذا وصف لي رجل عنده أدب ، أتمنى لقاءه و أتأسف على فواته » .

و قال أحدهم لابنه : « يا بني ، لأن تتعلم بابًا واحدًا من الأدب ، أحب إليّ من أن تتعلم سبعين بابًا من العلم » .

و كان يحضر مجلس أحمد بن حنبل خمسة الآلاف ، خمسمائة يكتبون العلم ، و الباقي يتعلمون من أدب أحمد .

بعد أن بدأنا أول خطوة في طريق الصلاح و الإصلاح ، و هو اختيار الصاحب ، علينا أن نبدأ بأنفسنا أولًا ، حتى لا نكون كما قال تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) البقرة ٤٤ ؛ و قوله تعالى : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) الصف ٣ .

و أول سبل إصلاح النفس ، هو الأدب و حسن الخلق . و أعظم الأدب هو الأدب مع الله .

إنَّ الأدب مع الله تعالى : هو القيام بدينه ، و التّأدّب بآدابه ، ظاهرًا و باطنًا.
و لا يستقيم لأحد قطّ الأدب مع الله تعالى إلّا بثلاثة أشياء : معرفته بأسمائه و صفاته ، و معرفته بدينه و شرعه و ما يحبّ و ما يكره ، و نفس مستعدّة قابلة ليّنة متهيّئة لقبول الحقّ علما و عملًا و حالًا .

من الأدب مع الله : التّأدّب مع القرآن و تلاوته و تدبّره ، (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) ؛ لأنّ في ذلك العلم و المعرفة بما أمر به الله عزّ وجلّ و نهى عنه و تعظيم شعائره و عدم انتهاك محارمه .

كذلك فإنّه أفضل السّبل و أقربها إلى الثّراء الرّوحيّ ، (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) الأنفال ٢ .
و من الأدب مع الله : التّوجّه إليه سبحانه بالدّعاء ، قال تعالى : (قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً) الفرقان ٧٧ .

و دعا الرّسول صلّى الله عليه و سلّم إلى الاستعانة بالله عزّ وجلّ ، و استعان به قائلًا : « اللهمّ أعنّي على شكرك و ذكرك و حسن عبادتك » ، و منه أيضا الثّناء عليه و تسبيحه و شكره على آلائه العظيمة ، و هو القائل عزّ وجلّ : (وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها) النحل ١٨.
و منه التّوسّل إليه بأسمائه الحسنى و صفاته العليا و الاستعاذة و الاستغفار ، و الاستعانة به و التّضرّع إليه و التّوكّل عليه في جميع أمورنا.

قال ابن القيّم- رحمه الله تعالى- : سمعت شيخ الإسلام ابن تيميّة - رحمه الله - يقول : « من كمال أدب الصّلاة أن يقف العبد بين يدي ربّه مطرقًا خافضًا طرفه إلى الأرض ، و لا يرفع بصره إلى فوق » .

و **من الأدب مع الله في العبادة :** السّكون في الصّلاة ، و هو الدّوامِ الّذي قال الله تعالى فيه : (الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ) المعارج ٢٣ ؛ سئل عقبة ابن عامر عن قوله تعالى : (الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ) ، أهم الّذين يصلّون دائما ؟ ، قال : لا ، و لكنّه إذا صلّى لم يلتفت عن يمينه و لا عن شماله و لا خلفه .

قلت - ابن القيّم - هما أمران : الدّوام عليها و المداومة عليها. فهذا الدّوام ، و المداومة في قوله تعالى : (وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ) . و فسّر الدّوام بسكون الأطراف و الطّمأنينة .

و أدبه في استماع القراءة : التدبر و التأمل و السكينة حين سماع القران .

و رفع البصر إلى السماء في الصلاة ينافي الأدب مع الله ، و لذلك كان حرامًا ، و حذر منه النبي صلى الله عليه و سلم تحذيرًا بالغًا ، و قال فيه قولًا شديد ، فقال صلى الله عليه و سلم : « ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم » ، فاشتد قوله في ذلك حتى قال : «لينتهنّ عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم » .

و إذا نظرت إلى أدب الخضر عليه السلام مع ربه ، حين قال في خرقه للسفينة :
قال : (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) الكهف ٧٩ ؛ فلم ينسب العيب إلى الله أدبًا منه ، مع أنَّه قال : ما فعلته عن أمري .

و انظر إلى أدب إبراهيم عليه السلام ، حين قال : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِين وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) الشعراء ٧٨ - ٨٢ ؛ فلم ينسب المرض إلى الله تعالى أدبًا منه مع الله .

فهذا من الأدب أن يكون الإنسان مؤدبًا مع ربه ، فلا ينسب الشر و لا العيب إليه ، مع أنَّه يعلم أنَّ كل شيء من عند الله و بأمر الله .

لا يحلف بغير الله أبدًا صادقا أو كاذبا ، (وَ لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ) .
و لا يكثر من الحلف بالله ، قال تعالى : (وَ احْفَظُوا أَيْمَانَكُم) المائدة ٨٩ .

و من جميل أقوال العلماء في الأدب مع الله :

قال أبا علي الدقاق : « من صاحب الملوك بغير أدب ، أسلمه الجهل إِلَى القتل » .

رَوَى عَن ابْن سيرين أَنَّهُ سئل : أي الآداب أقرب إِلَى الله تَعَالَى ؟ ، فَقَالَ : « معرفة ربوبيته و عمل بطاعته و الحمد لِلَّهِ عَلَى السراء و الصبر عَلَى الضراء » .

و قيل - للحسن البصري - : قَدْ أَكْثَر النَّاسِ فِي علم الآداب فَمَا أنفعها عاجلا و أوصلها جلا ، فَقَالَ : التفقه فِي الدين و الزهد فِي الدنيا و المعرفة مِمَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عليك .

و قَالَ يَحْيَي بْن معاذ : من تأدب بأدب اللَّه تَعَالَى صار من أهل محبة اللَّه تَعَالَى ؛ وَ قَالَ سهل : الْقَوْم استعانوا بالله تَعَالَى عَلَى أمر اللَّه تَعَالَى ، و صبروا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى آداب اللَّه تَعَالَى .

وَ رَوَى عَنِ ابْنِ مبارك أَنَّهُ قَالَ : نحن إِلَى قليل من الأدب أحوج منا إِلَى كثير من العلم ؛ وَ قَالَ يَحْيَي بْن معاذ : إِذَا ترك للعارف أدبه مَعَ معروفه فَقَدْ هلك مَعَ الهالكين .

سمعت الأستاذ أبا عَلِي يَقُول : « ترك الأدب موجب ، يوجب الطرد ، فمن أساء الأدب عَلَى البساط رد إِلَى الباب ، و من أساء الأدب عَلَى الباب رد إِلَى سياسة الدواب » .

و ترك الحسد ، لأن الحسد من سوء الأدب مع الله تعالى .

يا حاسدًا لي على نعمتي   أتدري على من أسأت الأدب
أسأت الله مع الله في ملكه فعاقبك بأن زادني و سد عنك أبواب الطلب

و من سوء الأدب : سب الدهر أو الزمن عند حلول المصائب ؛ لأن الدهر ليس هو الفاعل ، بل الفاعل هو الله سبحانه . أو قول: ما شاء الله و شاء فلان .

و من الأدب مع الله سبحانه و تعالى ، أن يستتر الذي يريد غسلاً بشيء يستره و يواريه ، و خصوصاً من كان في الأمكنة المكشوفة التي لا يحجبها شيء . وَ عَن يعلى : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ رَأَى رَجُلًا يَغْتَسِلُ بِالْبَرَازِ ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ الله وَ أَثْنَى عَلَيْهِ وَ قَالَ : « إن الله عز وَجل حِييّ حييّ ستِير يحب الْحيَاء و الستر ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ » . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَ النَّسَائِيُّ وَفِي رِوَايَتِهِ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ سِتِّيرٌ فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَغْتَسِلَ فَلْيَتَوَارَ بِشَيْءٍ » حسنه الألباني .

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : « قلت : يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر ؟ ، فقال : احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك ، قلت : يا رسول الله ، فإذا كان القوم بعضهم في بعض ؟ - (أي في السفر ونحوه) - ، قال : فإن استطعت أن لا يراها أحد فلا يرينها ، فقلت : فإذا كان أحدنا خاليًا (أي منفردا) ، قال : فالله تبارك وتعالى أحق أن يستحيا منه » . رواه أحمد و أبو داود و الترمذي و ابن ماجه و الحاكم و البيهقي حسنه الألباني .

و الأدب مع رسول الله صلى الله عليه و سلم :
توقيره صلى الله عليه و سلم ، و الصلاة و السلام عليه عندما يذكر ، و الاقتداء بسنته و حب أهل بيته و صحابته رضي الله عنهم .
قال مالك : رأيت أيوب السختياني بمكة حجتين ، فما كتبت عنه ، و رأيته في الثالثة قاعدًا في فناء زمزم ، فكان إذا ذكر النبي عنده بكى حتى أرحمه ، فلما رأيت ذلك كتبت عنه .

كان هارون الرشيد في مسجد النبي ، و كان مالك يلقي درسًا ، فرفع هارون صوته ، فقال : مالك إنِّ حرمة النبي و هو حي ، كحرمته و هو ميت ، قال تعالى : (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) الحجرات ٢ ، فسكت هارون الخليفة أدبًا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم .

كلمات من ذهب لا تقدر بثمن حول آداب و حقوق المسلم على المسلم :

هِيَ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَيْهِ إذَا لَقِيتَهُ ، وَ تُجِيبَهُ إذَا دَعَاكَ ، وَ تُشَمِّتَهُ إذَا عَطَسَ ، وَ تَعُودَهُ إذَا مَرِضَ ، وَ تَشْهَدَ جِنَازَتَهُ إذَا مَاتَ ، وَ تَبَرَّ قَسَمَهُ إذَا أَقْسَمَ عَلَيْكَ ، وَ تَنْصَحَ لَهُ إذَا اسْتَنْصَحَكَ ، وَ تَحْفَظَهُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إذَا غَابَ عَنْكَ .

وَ مِنْهَا أَنْ تُحِبَّ لَهُ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وَ تَكْرَهَ لَهُ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَ تَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى سَائِرُهُ بِالْحُمَّى وَ السَّهَرِ » ، وَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » .

وَ مِنْهَا : أَنْ لَا يُؤْذِيَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِفِعْلٍ وَ لَا قَوْلٍ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَ يَدِهِ ، وَ الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ ، وَ الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السُّوءَ وَ اجْتَنَبَهُ » ، وَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا » .

وَ مِنْهَا : أَنْ يَتَوَاضَعَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ وَ لَا يَتَكَبَّرَ عَلَيْهِ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « إنَّ اللَّهَ أَوْحَى إلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ » .

وَ مِنْهَا : أَنْ لَا يَسْمَعَ بَلَاغَاتِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَ لَا يُبَلِّغَ بَعْضَهُمْ مَا يَسْمَعُ مِنْ بَعْضٍ ، فَفِي الْحَدِيثِ : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ » .

وَ مِنْهَا : أَنْ لَا يَزِيدَ فِي الْهَجْرِ لِمَنْ يَعْرِفُهُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مَهْمَا غَضِبَ عَلَيْهِ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَ يُعْرِضُ هَذَا وَ خَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ » .

وَ قَالَتْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: « مَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِنَفْسِهِ قَطُّ ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ ». وَ فِي الْحَدِيثِ: « مَا زَادَ اللهُ رَجُلًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا » .

وَ مِنْهَا : أَنْ يُحْسِنَ إلَى كُلِّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ مَا اسْتَطَاعَ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَهْلِ وَ غَيْرِ الْأَهْلِ ، « وَ لَمْ يَكُنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و سَلَّمَ إلَّا أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ ثُمَّ لَمْ يَصْرِفْهُ عَنْهُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ كَلَامِهِ .

وَ مِنْهَا : أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ إلَّا بِإِذْنِهِ ، بِأَنْ يَسْتَأْذِنَ ثَلَاثًا فَإِنْ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ انْصَرَفَ .

وَ مِنْهَا : أَنْ يُخَالِقَ الْجَمِيعَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ وَ يُعَامِلَهُ بِحَسَبِ طَرِيقَتِهِ .

وَ التَّلَطُّفُ بِالصِّبْيَانِ مِنْ عَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، وَ كَانَ إذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرِهِ تُلُقِّيَ بِالصِّبْيَانِ ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِهِمْ فَيُرْفَعُونَ إلَيْهِ ، فَيُرْفَعُ مِنْهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ ، وَ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ أَنْ يَحْمِلُوا بَعْضَهُمْ ، وَ كَانَ يُؤْتَى بِالصَّبِيِّ الصَّغِيرِ لِيَدْعُوَ لَهُ بِالْبَرَكَةِ وَ لِيُسَمِّيَهُ ، فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي حِجْرِهِ ، فَرُبَّمَا بَالَ الصَّبِيُّ ثُمَّ يَغْسِلُ ثَوْبَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْدُ .

وَ مِنْهَا : أَنْ يَكُونَ مَعَ كَافَّةِ الْخَلْقِ مُسْتَبْشِرًا طَلْقَ الْوَجْهِ رَقِيقًا ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « أَتَدْرُونَ عَلَى مَنْ حُرِّمَتِ النَّارُ ؟ ، قَالُوا : اللهُ وَ رَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : عَلَى اللَّيِّنِ الْهَيِّنِ السَّهْلِ الْقَرِيبِ » ، وَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » .

وَ مِنْهَا أَنْ لَا يَعِدَ مُسْلِمًا بِوَعْدٍ إِلَّا وَ يَفِي بِهِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « الْعِدَةُ عَطِيَّةٌ » ، وَ قَالَ: « الْعِدَةُ دَيْنٌ » ، وَ قَالَ : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَ إِنْ صَامَ وَ صَلَّى : مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَ إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَ إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » .

وَمِنْهَا : أَنْ يُنْصِفَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَ لَا يَأْتِيَ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِمَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ أَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا » .

وَ مِنْهَا : أَنْ يَزِيدَ فِي تَوْقِيرِ مَنْ تَدُلُّ هَيْئَتُهُ وَ ثِيَابُهُ عَلَى عُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ فَيُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ .

وَ مِنْهَا : أَنْ يُصْلِحَ ذَاتَ الْبَيْنِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَهْمَا وَجَدَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَ هَذَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ لِأَنَّ تَرْكَ الْكَذِبِ وَاجِبٌ ، وَ لَا يَسْقُطُ الْوَاجِبُ إِلَّا بِوَاجِبٍ آكَدَ مِنْهُ ، وَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : رخص النبي صلى الله عليه وسلم من الكذب في ثلاث: في الحرب وفي الإصلاح بين الناس وقول الرجل لامرأته. .

وَ مِنْهَا : أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « مَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » ، وَ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « لَا يَرَى الْمُؤْمِنُ مِنْ أَخِيهِ عَوْرَةً فَيَسْتُرُهَا عَلَيْهِ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

وَ مِنْهَا : أَنْ يَتَّقِيَ مَوَاضِعَ التُّهَمِ صِيَانَةً لِقُلُوبِ النَّاسِ عَنْ سُوءِ الظَّنِّ وَ لِأَلْسِنَتِهِمْ عَنِ الْغِيبَةِ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا عَصَوُا اللَّهَ بِذِكْرِهِ وَ كَانَ هُوَ السَّبَبَ فِيهِ كَانَ شَرِيكًا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَ لَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) الْأَنْعَام: ١٠٨.

وَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « كَيْفَ تَرَوْنَ مَنْ سَبَّ أَبَوَيْهِ ؟ ، فَقَالُوا : وَ هَلْ مِنْ أَحَدٍ يَسُبُّ أَبَوَيْهِ ؟ ، فَقَالَ: نَعَمْ يَسُبُّ أَبَوَيْ غَيْرِهِ فَيَسُبُّونَ أَبَوَيْهِ » . وَ قَالَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « مَنْ أَقَامَ نَفْسَهُ مَقَامَ التُّهَمِ فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ ».

وَ مِنْهَا : أَنْ يَشْفَعَ لِكُلِّ مَنْ لَهُ حَاجَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَنْ لَهُ عِنْدَهُ مَنْزِلَةٌ وَ يَسْعَى فِي قَضَاءِ حَاجَتِهِ بِمَا يَقْدِرُ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا » صحيح .

وَ مِنْهَا : أَنْ يَبْدَأَ مَنْ يَلْقَى بِالسَّلَامِ قَبْلَ الْكَلَامِ ، وَ يُصَافِحَهُ عِنْدَ السَّلَامِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَ إِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا) النِّسَاءِ: ٨٦ .

وَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَ لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ ، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » .

وَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي وَ إِذَا سَلَّمَ عَنِ الْقَوْمِ وَاحِدٌ أَجْزَأَ عَنْهُمْ » . وَ كَانَ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَمُرُّ عَلَى الصِّبْيَانِ فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ ، وَ يُرْوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ ، وَ رُوِيَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ مَرَّ فِي الْمَسْجِدِ يَوْمًا وَ عُصْبَةٌ مِنَ النَّاسِ قُعُودٌ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ بِالسَّلَامِ ، وَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « إِذَا

انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى مَجْلِسٍ ، فَلْيُسَلِّمْ فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يَجْلِسَ فَلْيَجْلِسْ ، ثُمَّ إِذَا قَامَ فَلْيُسَلِّمْ فَلَيْسَتِ الْأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الْأَخِيرَةِ ». وَ رُوِيَ أَنَّ مِنْ تَمَامِ التَّحِيَّةِ الْمُصَافَحَةَ .

وَ قَالَ الحسن : « الْمُصَافَحَةُ تَزِيدُ فِي الْوُدِّ » . وَلَا بَأْسَ بِقُبْلَةِ يَدِ الْمُعَظَّمِ فِي الدِّينِ تَبَرُّكًا بِهِ وَ تَوْقِيرًا لَهُ ، وَ رُوِيَ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أَذِنَ فِي تَقْبِيلِ يَدِهِ وَرَأْسِهِ .

وَ الِانْحِنَاءُ عِنْدَ السَّلَامِ مَنْهِيٌّ عَنْهُ . وَالِالْتِزَامُ وَ التَّقْبِيلُ قَدْ وَرَدَ عِنْدَ الْقُدُومِ مِنَ السَّفَرِ . وَ الْأَخْذُ بِالرِّكَابِ فِي تَوْقِيرِ الْعُلَمَاءِ وَرَدَ بِهِ الْأَثَرُ ، فَعَلَ ذَلِكَ « ابْنُ عَبَّاسٍ » بركاب « زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ».

وَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يُقِمِ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ وَ لَكِنْ تَوَسَّعُوا وَ تَفَسَّحُوا » .

و يُسْتَحَبُّ لِلدَّاخِلِ إِذَا سَلَّمَ وَلَمْ يَجِدْ مَجْلِسًا أَنْ لَا يَنْصَرِفَ بَلْ يَقْعُدُ وَرَاءَ الصَّفِّ . كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ : فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ -، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَوَجَدَ فُرْجَةً فَجَلَسَ فِيهَا ، وَ أَمَّا الثَّانِي فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ ، وَ أَمَّا الْآخَرُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، قَالَ لَهُمْ: « أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ : أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ ، وَ أَمَّا الثَّانِي فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ » . وَ سَلَّمَتْ « أم هانئ » عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَقَالَ : مَنْ هَذِهِ ؟ ، فَقِيلَ لَهُ : « أم هانئ » ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَرْحَبًا يَا أم هانئ .

وَ مِنْهَا : أَنْ يَصُونَ عِرْضَ أَخِيهِ وَ نَفْسِهِ وَ مَالِهِ عَنْ ظُلْمِ غَيْرِهِ مَهْمَا قَدَرَ ، وَ يَرُدَّ عَنْهُ وَيُنَاضِلَ دُونَهُ وَ يَنْصُرَهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْهِ بِمُقْتَضَى أُخُوَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَهَكُ فِيهِ عِرْضُهُ وَتُسْتَحَلُّ حُرْمَتُهُ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نَصْرَهُ ، وَ مَا مِنِ امْرِئٍ خَذَلَ مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ إِلَّا خَذَلَهُ اللهُ فِي مَوْضِعٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ ».

وَ مِنْهَا : تَشْمِيتُ الْعَاطِسِ ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْعَاطِسِ: « يَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ » ، وَ يَقُولُ الَّذِي يُشَمِّتُهُ : « يَرْحَمُكُمُ اللهُ » ، وَ يَرُدُّ عَلَيْهِ الْعَاطِسُ فَيَقُولُ: « يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ » ؛ وَيُسْتَحَبُّ إِذَا عَطَسَ أَنْ يَغُضَّ صَوْتَهُ وَ يُخَمِّرَ وَجْهَهُ ، وَ إِذَا تَثَاءَبَ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَى فِيهِ .

وَ مِنْهَا : أَنَّهُ إِذَا بُلِيَ بِذِي شَرٍّ فَيَنْبَغِي أَنْ يُجَامِلَهُ وَ يَتَّقِيَهُ ، قَالَ بَعْضُهُمْ : « خَالِصِ الْمُؤْمِنَ مُخَالَصَةً ، وَ خَالِقِ الْفَاجِرَ مُخَالَقَةً ، فَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرْضَى بِالْخُلُقِ الْحَسَنِ فِي الظَّاهِرِ » .

وَ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : « إِنَّا لَنَبَشُّ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَ إِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ » ، وَ هَذَا مَعْنَى الْمُدَارَاةِ وَ هُوَ مَعَ مَنْ يُخَافُ شَرُّهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) الْمُؤْمِنُونَ ٩٦ وَ فُصِّلَتْ ٣٤ ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَ يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) الرَّعْدِ ٢٢، وَ الْقَصَصِ ٥٤ ، أي : الْفُحْشَ وَ الْأَذَى بِالسَّلَامِ وَ الْمُدَارَةِ ، وَ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَ لَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ) الْبَقَرَةِ ٢٥١ وَ الْحَجِّ ٤٠ ، قَالَ : « بِالرَّغْبَةِ وَ الرَّهْبَةِ وَ الْحَيَاءِ وَ الْمُدَارَاةِ » ، وَ قَالَتْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « اسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، فَقَالَ : ائْذَنُوا لَهُ فَبِئْسَ رَجُلُ الْعَشِيرَةِ هُوَ ، فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْقَوْلَ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ لَهُ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً ، فَلَمَّا خَرَجَ قُلْتُ لَهُ : لَمَّا دَخَلَ قُلْتَ الَّذِي قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْقَوْلَ ! ، فَقَالَ : يَا عائشة إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ » .

وَ فِي الْخَبَرِ : « مَا وَقَى الرَّجُلُ بِهِ عِرْضَهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ » ، وَ قَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ : « لَيْسَ بِحَكِيمٍ مَنْ لَا يُعَاشِرُ بِالْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَجِدُ مِنْ مُعَاشَرَتِهِ بُدًّا حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ فَرَجًا » .

وَ مِنْهَا : أَنْ يَخْتَلِطَ بِالْمَسَاكِينِ وَ يُحْسِنَ إِلَى الأَيْتَامِ ، كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَ أَمِتْنِي مِسْكِينًا وَ احْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينَ » . وَ قَدْ رُوِيَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي مُلْكِهِ ، كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَرَأَى مِسْكِينًا جَلَسَ إِلَيْهِ و قَال : « مِسْكِينٌ جَالَسَ مِسْكِينًا » ؛ وَ فِي الْخَبَرِ : « لاَ تَغْبِطَنَّ فَاجِرًا بِنِعْمَةٍ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي إِلاَمَ يَصِيرُ بَعْدَ الْمَوْتِ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ طَالِبًا حَثِيثًا » .

وَ أَمَّا الْيَتِيمُ : فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا حَتَّى يَسْتَغْنِيَ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » ، وَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ - وَ هُوَ يُشِيرُ بِأُصْبُعَيْهِ - » ، وَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « مَنْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ تَرَحُّمًا كَانَتْ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمُرُّ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَةٌ » ، وَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « خَيْرُ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ ، وَ شَرُّ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ » .

وَ مِنْهَا : النَّصِيحَةُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ وَ الْجُهْدُ فِي إِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَى قَلْبِهِ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » ، وَ عَنْهُ : « مَنْ أَقَرَّ عَيْنَ مُؤْمِنٍ أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، وَ عَنْهُ: « مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُؤْمِنٍ مَغْمُومٍ أَوْ أَعَانَ مَظْلُومًا غُفِرَ لَهُ » ، وَ عَنْهُ : « إِنَّ مِنْ أَحَبِّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى قَلْبِ الْمُؤْمِنِ وَ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْهُ غَمًّا أَوْ يَقْضِيَ عَنْهُ دَيْنًا أَوْ يُطْعِمَهُ مِنْ جُوعٍ » .

وَ مِنْهَا : أَنْ يَعُودَ مَرْضَاهُمْ ؛ وَ أَدَبُ الْعَائِدِ : خِفَّةُ الْجِلْسَةِ وَ قِلَّةُ السُّؤَالِ وَ إِظْهَارُ الرِّقَّةِ وَ الدُّعَاءُ بِالْعَافِيَةِ وَ غَضُّ الْبَصَرِ عَنْ عَوْرَاتِ الْمَوْضِعِ . وَ عِنْدَ الاِسْتِئْذَانِ لاَ يُقَابِلُ الْبَابَ ، وَ يَدُقُّ بِرِفْقٍ ، وَ لاَ يَقُولُ: « أَنَا » إِذَا قِيلَ لَهُ مَنْ ؟ .

وَ فِي الْحَدِيثِ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ - : « إِذَا عَادَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ أَوْ زَارَهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مَنْزِلاً فِي الْجَنَّةِ » ، وَعَنْ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « مَرِضْتُ ، فَعَادَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أُعِيذُكَ بِاللَّهِ الأَحَدِ الصَّمَدِ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ مِنْ شَرِّ مَا تَجِدُ قَالَهُ مِرَارًا» ؛ وَ يُسْتَحَبُّ لِلْعَلِيلِ أَيْضًا أَنْ يَقُولَ : « أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَ قُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ » ، وَ قَالَ طَاوُوسٌ : « أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ أَخَفُّهَا». وَ جُمْلَةُ أَدَبِ الْمَرِيضِ حُسْنُ الصَّبْرِ ، وَ قِلَّةُ الشَّكْوَى وَ الضَّجَرِ ، وَ الْفَزَعُ إِلَى الدُّعَاءِ ، وَ التَّوَكُّلُ بَعْدَ الدَّوَاءِ عَلَى خَالِقِ الدَّوَاءِ .

وَ مِنْهَا : أَنْ يُشَيِّعَ جَنَائِزَهُمْ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « مَنْ شَيَّعَ جَنَازَةً فَلَهُ قِيرَاطٌ مِنَ الأَجْرِ ، فَإِنْ وَقَفَ حَتَّى دُفِنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ وَالْقِيرَاطُ مِثْلُ أُحُدٍ » ، - جَبَلٌ عَظِيمٌ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ - وَ الْقَصْدُ مِنَ التَّشْيِيعِ قَضَاءُ حَقِّ الْمُسْلِمِينَ وَ الاِعْتِبَارُ .

وَ مِنْهَا : أَنْ يَزُورَ قُبُورَهُمْ ، وَ الْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ الدُّعَاءُ وَ الاِعْتِبَارُ وَ تَرْقِيقُ الْقَلْبِ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا إِلاَّ وَ الْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ » صحيح .
وَ عَنْ حَاتِمٍ الأَصَمِّ : « مَنْ مَرَّ بِالْمَقَابِرِ فَلَمْ يَتَفَكَّرْ لِنَفْسِهِ وَ لَمْ يَدْعُ لَهُمْ فَقَدْ خَانَ نَفْسَهُ وَ خَانَهُمْ ».

وَ قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ : خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى الْمَقْبَرَةِ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى الْقُبُورِ بَكَى ، وَ قَالَ: « يَا ميمون هَذِهِ قُبُورُ آبَائِي كَأَنَّهُمْ لَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي لَذَّاتِهِمْ ، أَمَا تَرَاهُمْ صَرْعَى قَدْ حَلَّتْ بِهِمُ الْمَثُلاَتُ ، وَ أَصَابَ الْهَوَامُ مِنْ أَبْدَانِهِمْ » ، ثُمَّ بَكَى وَ قَالَ : « وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَنْعَمَ مِمَّنْ صَارَ إِلَى هَذِهِ الْقُبُورِ وَ قَدْ أَمِنَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ » .

وَ آدَابُ الْمُعَزِّي : خَفْضُ الْجَنَاحِ ، وَ إِظْهَارُ الْحُزْنِ ، وَ قِلَّةُ الْحَدِيثِ وَ تَرْكُ التَّبَسُّمِ .

وَ آدَابُ تَشْيِيعِ الْجِنَازَةِ : لُزُومُ الْخُشُوعِ ، وَ تَرْكُ الْحَدِيثِ ، وَ مُلاَحَظَةُ الْمَيِّتِ ، وَ التَّفَكُّرُ فِي الْمَوْتِ وَ الاِسْتِعْدَادُ لَهُ . وَ الإِسْرَاعُ بِالْجِنَازَةِ سُنَّةٌ .

فَهَذِه جُمَلُ آدَابٍ تُنَبِّهُ عَلَى آدَابِ الْمُعَاشَرَةِ مَعَ عُمُومِ الْخَلْقِ ، وَ الْجُمْلَةُ الْجَامِعَةُ فِيه :

أَنْ لَا تَسْتَصْغِرَ مِنْهُمْ أَحَدًا حَيًّا كَانَ أَوْ مَيِّتًا فَتَهْلِك لِأَنَّك لَا تَدْرِي لَعَلَّهُ خَيْرٌ مِنْك ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا، فَلَعَلَّهُ يُخْتَمُ لَك بِمِثْلِ حَالِهِ وَ يُخْتَمُ لَهُ بِالصَّلَاحِ ، وَ لَا تَنْظُرْ إلَيْهِمْ فِي حَالِ دُنْيَاهُمْ بِعَيْنِ التَّعْظِيمِ فَإِنَّ الدُّنْيَا صَغِيرَةٌ عِنْدَ اللَّهِ صَغِيرٌ مَا فِيهَا ، وَ لَا تَبْذُلْ لَهُمْ دِينَك لِتَنَالَ مِنْ دُنْيَاهُمْ فَتَصْغُرَ فِي أَعْيُنِهِمْ ثُمَّ تُحْرَمَ دُنْيَاهُمْ ، وَ لَا تُعَادِهِمْ بِحَيْثُ تُظْهِرُ الْعَدَاوَةَ إلَّا إذَا رَأَيْت مُنْكَرًا فِي الدِّينِ فَتُعَادِي أَفْعَالَهُمْ الْقَبِيحَةَ ، وَ لَا تَسْكُنْ إلَيْهِمْ فِي ثَنَائِهِمْ عَلَيْك فِي وَجْهِك وَ حُسْنِ بِشْرِهِمْ لَك فَقَدْ لَا يَكُونُ لِذَلِك حَقِيقَةٌ بَاطِنًا ، وَ لَا تَشْك إلَيْهِمْ أَحْوَالَك فَيَكِلَك اللَّهُ إلَيْهِمْ ، وَ لَا تَطْمَعْ أَنْ يَكُونُوا لَك فِي الْغَيْبِ وَ السِّرِّ كَمَا فِي الْعَلَانِيَةِ فَذَلِك طَمَعٌ كَاذِبٌ ، وَ لَا تَطْمَعْ فِيمَا فِي أَيْدِيهِمْ فَتَسْتَعْجِلَ الذُّلَّ ، وَ إذَا سَأَلْت أَخًا مِنْهُمْ حَاجَةً قَضَاهَا فَهُوَ أَخٌ مُسْتَفَادٌ ، وَ إنْ لَمْ يَقْضِ فَلَا تُعَاتِبْهُ فَيَصِيرَ عَدُوًّا تَطُولُ عَلَيْك مُقَاسَاتُهُ ، وَ لَا تَشْتَغِلْ بِوَعْظِ مَنْ لَا تَرَى فِيهِ مَخَايِلَ الْقَبُولِ فَلَا يَسْمَعُ مِنْك وَ يُعَادِيك ، وَ لِيَكُنْ وَعْظُهُ عَرَضًا وَ اسْتِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَنْصِيصٍ عَلَى الشَّخْصِ ، وَ إذْ بَلَغَك مِنْهُمْ غِيبَةٌ أَوْ رَأَيْت مِنْهُمْ شَرًّا فَكِلْ أَمْرَهُمْ إلَى اللَّهِ وَ اسْتَعِذْ بِاَللَّهِ مِنْ شَرِّهِمْ ، وَ لَا تَشْغَلْ نَفْسَك بِالْمُكَافَأَةِ فَيَزِيدَ الضَّرَرُ ، وَ كُنْ فِيهِمْ سَمِيعًا لِحَقِّهِمْ أَصَمَّ عَنْ بَاطِلِهِمْ نَطُوقًا بِحَقِّهِمْ ، وَ احْذَرْ صُحْبَةَ أَكْثَرِ النَّاسِ فَإِنَّهُمْ لَا يُقِيلُونَ عَثْرَةً وَ لَا يَغْفِرُونَ زَلَّةً وَ لَا يَسْتُرُونَ عَوْرَةً ، وَ يُحَاسِبُونَ عَلَى النَّقِيرِ وَ الْقِطْمِيرِ وَ يَحْسُدُونَ عَلَى الْقَلِيلِ وَ الْكَثِيرِ ، وَ لَا تُعَوِّلْ عَلَى مَوَدَّةِ مَنْ لَمْ تَخْبُرْهُ حَقَّ الْخِبْرَةِ بِأَنْ تَصْحَبَهُ مُدَّةً فَتُجَرِّبَهُ فِي أَحْوَالِهِ ، أَوْ تُعَامِلَهُ بِالدِّينَارِ وَ الدِّرْهَمِ أَوْ تَقَعَ فِي شِدَّةٍ فَتَحْتَاجَ إلَيْهِ أَوْ تُسَافِرَ مَعَهُ ، فَإِنْ رَضِيتَهُ فِي هَذِهِ الاحوال فتاخذه اب لك ان كان كبيرا وابنا لك ان كان صغيرا او اخا ان كان مثلا لك.

جملة من الآداب العامة التي يتحلى بها المسلم في معاملاته مع المسلمين و غير المسلمين :

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: « إنْ أَرَدْتَ حُسْنَ الْمَعِيشَةِ فَالْقَ صَدِيقَك وَ عَدُوَّك بِوَجْهِ الرِّضَا ، وَ تَوَقَّرْ مِنْ غَيْرِ كِبْرٍ ، وَ تَوَاضَعْ فِي غَيْرِ مَذَلَّةٍ ، وَ كُنْ فِي جَمِيعِ أُمُورِك فِي أَوْسَطِهَا ، فَكِلَا طَرَفَيْ قَصْدِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ . وَ لَا تَنْظُرْ فِي عِطْفَيْك ، وَ لَا تُكْثِرْ الِالْتِفَاتَ ، وَ لَا تَقِفْ عَلَى الْجَمَاعَاتِ ، وَ إِذَا جَلَسْتَ فَلَا تَسْتَوْفِزْ وَ تَحَفَّظْ مِنْ تَشْبِيكِ أَصَابِعِك وَ الْعَبَثِ بِلِحْيَتِك وَ خَاتَمِك وَ تَخْلِيلِ أَسْنَانِك وَ إِدْخَالِ أُصْبُعِك فِي أَنْفِك وَ كَثْرَةِ بُصَاقِك وَ تَنَخُّمِك ، وَ كَثْرَةِ التَّمَطِّي وَ التَّثَاؤُبِ فِي وُجُوهِ النَّاسِ وَ فِي الصَّلَاةِ وَ غَيْرِهَا ، وَ لْيَكُنْ مَجْلِسُك هَادِئًا وَ حَدِيثُك مَنْظُومًا مُرَتَّبًا . وَ أَصْغِ إلَى الْكَلَامِ الْحَسَنِ مِمَّنْ حَدَّثَك مِنْ غَيْرِ إظْهَارِ تَعَجُّبٍ مُفْرِطٍ ، وَ لَا تَسْأَلْهُ إعَادَتَهُ . وَ اسْكُتْ عَنْ الْمَضَاحِكِ وَلَا تُحَدِّثْ عَنْ عُجَابِك بِوَلَدِك وَ لَا شِعْرِك وَ لَا تَصْنِيفِك وَ سَائِرِ مَا يَخُصُّك ، وَ لَا تَتَصَنَّعْ تَصَنُّعَ الْمَرْأَةِ فِي التَّزَيُّنِ ، وَ لَا تَتَبَذَّلْ تَبَذُّلَ الْعَبْدِ ، وَ لَا تُلِحَّ فِي الْحَاجَاتِ ، وَ لَا تُشَجِّعْ أَحَدًا عَلَى الظُّلْمِ ، وَ لَا تُعْلِمْ أَهْلَك وَ وَلَدَك فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمْ مِقْدَارَ مَالِك ؛ فَإِنَّهُمْ إنْ رَأَوْهُ قَلِيلًا هُنْتَ عِنْدَهُمْ ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا لَمْ تَبْلُغْ قَطُّ رِضَاهُمْ ، وَ خَوِّفْهُمْ مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ ، وَ لِنْ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ ، وَ إِذَا خَاصَمْتَ فَتَوَقَّرْ وَ تَحَفَّظْ مِنْ جَهْلِك ، وَ تَجَنَّبْ عَجَلَتَك وَ تَفَكَّرْ فِي حُجَّتِك ، وَ لَا تُكْثِرْ الْإِشَارَةَ بِيَدِك ، وَ لَا تُكْثِرْ الِالْتِفَاتَ إلَى مَنْ وَرَاءَك ، وَ إِذَا هَدَأَ غَيْظُك فَتَكَلَّمْ ، وَ لَا تَجْعَلْ مَالَك أَكْرَمَ مِنْ عِرْضِك . وَ إِنْ دَخَلْتَ مَجْلِسًا فَالْأَدَبُ فِيهِ الْبِدَايَةُ بِالتَّسْلِيمِ وَ تَرْكُ التَّخَطِّي لِمَنْ سَبَقَ ، وَ الْجُلُوسُ حَيْثُ اتَّسَعَ وَ حَيْثُ يَكُونُ أَقْرَبَ إلَى التَّوَاضُعِ ، وَ أَنْ تُحَيِّيَ بِالسَّلَامِ مَنْ قَرُبَ مِنْك عِنْدَ الْجُلُوسِ ، وَ لَا تَجْلِسْ عَلَى الطَّرِيقِ ، فَإِنْ جَلَسْتَ فَأَدَبُهُ : غَضُّ الْبَصَرِ ، وَ نُصْرَةُ الْمَظْلُومِ ، وَ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ ، وَ عَوْنُ الضَّعِيفِ ، وَ إِرْشَادُ الضَّالِّ ، وَ رَدُّ السَّلَامِ ، وَ إِعْطَاءُ السَّائِلِ ، وَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَ الِارْتِيَادُ لِمَوْضِعِ الْبُصَاقِ ، وَ لَا تَبْصُقْ فِي جِهَةِ الْقِبْلَةِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُمَازِحَ لَبِيبًا أَوْ غَيْرَ لَبِيبٍ ، فَإِنَّ اللَّبِيبَ يَحْقِدُ عَلَيْك وَ السَّفِيهَ يَجْتَرِئُ عَلَيْك. وَ مَنْ بُلِيَ فِي مَجْلِسٍ بِمِزَاحٍ أَوْ لَغَطٍ فَلْيَذْكُرِ اللَّهَ عَنْ قِيَامِهِ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ بِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَ أَتُوبُ إلَيْكَ إلَّا غُفِرَ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ» .

و الحمد لله رب العالمين .

المرء على دين خليله

قل لي : من صاحبك ؟ ، أقل لك : من أنت !

إنّ الحمد لله، نحمده و نستعينه ، و نستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادي له ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمدًا عبده و رسوله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) آل عمران ١٠٢ ، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) النساء ١ ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) الأحزاب ٧٠ - ٧١ .

أما بعد ، فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله ، و أحسن الهدي هدي محمد ، و شر الأمور محدثاتها ، و كل محدثة بدعة و كل بدعة ضلالة ، و كل ضلالة في النار .

أخي المسلم ، أختي المسلمة : نبدأ بإذن الله تعالى أول خطوة في طريق الخير ، و هو طريق الأنبياء و طريق العلماء و طريق الدعاة إلى الله تعالى ، و هم صالحون مصلحون ، و هذا الطريق يحتاج إلى صحبة صالحة تكن عونًا على صعابه ، و لذلك قال تعالى : (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) الزخرف ٦٧ .

فنحن نحتاج إلى وقفة مع النفس و إعادة الحسابات فيمن نصاحب و نصادق ، و من هنا يبدأ التغيير ، هل صاحبك يعينك على الخير أم يعينك على الشر ؟ ، هل يعينك أن تكون صالحًا مصلحًا أم فاسدًا مفسدًا ؟! .
و صحبة الصالحين ينتفع بها حتى البهائم - كما حصل للكلب الذي كان مع أصحاب الكهف فقد شملته بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال العجيبة و صار له ذكر و خبر و شأن - .

أما صحبة الأشرار فإنها الخسارة كل الخسارة و الندم كل الندم ، فهم يشجعون على فعل المعاصي و المنكرات و يرغبون فيها ، و يفتحون لمن جالسهم و خالطهم أبواب الشرور ، و يسهلون له سبل المعاصي .
فقرين السوء إن لم تشاركه في إساءته ، أخذت بنصيب وافر من الرضا بما يصنع ؛ و السكوت على شره فهو كنافخ الكير على الفحم الملوث ، و أنت جليسه القريب منه يحرق بدنك و ثيابك و يملأ أنفك بالروائح الكريهة .

و في مجالس الشر تقع الغيبة و النميمة و الكذب و الشتم و الكلام الفاحش ، و يقع اللهو و اللعب وممالأة الفساق على الخوض في الباطل ، فهي ضارة من جميع الوجوه لمن صاحبهم ، و شرٌّ على من خالطهم ؛ فكم هلك بسببهم أقوام ، و كم قادوا أصحابهم إلى المهالك من حيث يشعرون و من حيث لا يشعرون .

ورد أن عقبة بن أبي معيط كان يجلس مع النبي صلى الله عليه و سلم بمكة و لا يؤذيه ، و كان بقية قريش إذا جلسوا معه يؤذونه عليه الصلاة و السلام ؛ و كان لابن أبي معيط خليل كافر غائب في الشام ، فظنت قريش أن ابن أبي معيط قد أسلم ، فلما قدم خليله من الشام و بلغه ذلك غضب عليه غضبًا شديدًا وأبى أن يكلمه حتى يؤذي النبي صلى الله عليه و سلم ، فنفذ ما طلب منه خليله الكافر و آذى النبي صلى الله عليه و سلم ، فكانت عاقبته أن قتل يوم بدر كافرًا ، و أنزل الله فيه قوله تعالى : (وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ،قَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً) الفرقان ٢٩ .

و هي عامة في كل من صاحب الظلمة فأضلوه عن سبيل الله ، فإنّه سيندم يوم القيامة على مصاحبتهم ، و على الإعراض عن طريق الهدى الذي جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم .

روى البخاري و مسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و عنده عبد الله بن أبي أمية و أبو جهل ، فقال له : يا عم ، قل : « لا إله إلا الله « كلمة أحاج لك بها عند الله ، فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ ، فأعادا عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - فأعاد ، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب ، و أبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال النبي صلى الله عليه و سلم : لأستغفرنَّ لك ما لم أنه عنك ، فأنزل الله عز وجل : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى) التوبة ١١٣ .

و أنزل الله في أبي طالب: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) القصص ٥٦ .

ففي هذه الواقعة التحذير الشديد من مصاحبة الأشرار و جلساء السوء ، و في يوم القيامة يقول القرين لقرينه من هذا الصنف : (يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) الزخرف ٣٨ .

ألا فانتبهوا يا عباد الله لأنفسكم و جالسوا أهل البر و التقوى ، و خالطوا أهل الصلاح والاستقامة ، و ابتعدوا و أبعدوا أولادكم عن مخالطة الأشرار و مصاحبة الفجار ، خصوصًا في هذا الزمن الذي قل فيه الصالحون و تلاطمت فيه أمواج الفتن ، فإنَّ الخطر عظيم ، و المتمسك بدينه غريب بين الناس ! ، فطوبى للغرباء .

ذكر ابن كثير و القرطبي في تفسير قوله تعالى : (الإخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) :
إنَّ خَلِيلَانِ مُؤْمِنَانِ وَ خَلِيلَانِ كَافِرَانِ ، فَمَاتَ أَحَدُ الْمُؤْمِنَيْنِ فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّ فُلَانًا كَانَ يَأْمُرُنِي بِطَاعَتِكَ وَ طَاعَةِ رَسُولِكَ ، وَ يَأْمُرُنِي بِالْخَيْرِ وَ يَنْهَانِي عَنِ الشَّرِّ ، وَيُخْبِرُنِي أَنِّي مُلَاقِيكَ، يَا رَبِّ فَلَا تُضِلَّهُ بَعْدِي وَاهْدِهِ كَمَا هَدَيْتَنِي وَأَكْرِمْهُ كَمَا أَكْرَمْتَنِي، فَإِذَا مَاتَ خَلِيلُهُ الْمُؤْمِنُ جَمَعَ بَيْنَهُمَا، فَيَقُولُ: لِيُثْنِ أَحَدُكُمَا عَلَى صَاحِبِهِ، فَيَقُولُ: نِعْمَ الْأَخُ، وَنِعْمَ الْخَلِيلُ، وَنِعْمَ الصَّاحِبُ، قَالَ: وَيَمُوتُ أَحَدُ الْكَافِرَيْنِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّ فُلَانًا كَانَ يَنْهَانِي عَنْ طَاعَتِكَ وَطَاعَةِ رَسُولِكَ، وَيَأْمُرُنِي بِالشَّرِّ وَيَنْهَانِي عَنِ الْخَيْرِ، وَيُخْبِرُنِي أَنِّي غَيْرُ مُلَاقِيكَ، فَيَقُولُ بِئْسَ الأَخُ، وَ بِئْسَ الْخَلِيلُ، وَ بِئْسَ الصَّاحِبُ .

و قد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن ننظر و نراجع فيمن نصاحب ونصادق ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ » . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَ التِّرْمِذِيُّ وَ أَبُو دَاوُدَ وصححه الألباني.
قَالَ الإمام الخطابي : قَوْلُهُ : « الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ » ، مَعْنَاهُ لَا تُخَالِلْ إِلَّا مَنْ رَضِيتَ دِينَهُ وَ أَمَانَتَهُ ، فَإِنَّكَ إِذَا خَالَلْتَهُ قَادَكَ إِلَى دِينِهِ وَ مَذْهَبِهِ ، وَلَا تُغَرِّرْ بِدِينِكَ، وَلَا تُخَاطِرْ بِنَفْسِكَ، فَتُخَالِلَ مَنْ لَيْسَ مَرْضِيًّا فِي دِينِهِ وَمَذْهَبِهِ ؛ قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: وَ قَدْ رُوِيَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ ، انْظُرُوا إِلَى فِرْعَوْنَ مَعَهُ هَامَانُ ، انْظُرُوا إِلَى الْحَجَّاجِ مَعَهُ يَزِيدُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ شَرٌّ مِنْهُ ، انْظُرُوا إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ صَحِبَهُ رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ فَقَوَّمَهُ وَسَدَّدَهُ ، وَ يُقَالُ: إِنَّ الْخُلَّةَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَخَلُّلِ الْمَوَدَّةِ الْقَلْبَ وَ تَمَكُّنِهَا مِنْهُ : وَ هِيَ أَعْلَى دَرَجِ الْإِخَاءِ ، وَ ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ فِي الْأَصْلِ أَجَانِبُ فَإِذَا تَعَارَفُوا ائْتَلَفُوا فَهُمْ أَوِدَّاءُ وَإِذَا تَشَاكَلُوا فَهُمْ أَحِبَّاءُ فَإِذَا تَأَكَّدَتِ الْمَحَبَّةُ صَارَتْ خُلَّةً .

و قال الماوردي في آداب الدنيا و الدين ، قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ » . فَإِذَا كَاثَرَهُمْ الْمُجَالِسَ ، وَ طَاوَلَهُمْ الْمُؤَانِسَ ، أَحَبَّ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ فِي أَفْعَالِهِمْ ، وَيَتَأَسَّى بِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَ لَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ أَنْ يُقَصِّرَ عَنْهُمْ ، وَ لَا أَنْ يَكُونَ فِي الْخَيْرِ دُونَهُمْ ، فَتَبْعَثُهُ الْمُنَافَسَةُ عَلَى مُسَاوَاتِهِمْ ، وَ رُبَمَا دَعَتْهُ الْحَمِيَّةُ إِلَى الزِّيَادَةِ عَلَيْهِمْ وَ الْمُكَاثَرَةِ لَهُمْ فَيَصِيرُوا سَبَبًا لِسَعَادَتِهِ ، وَ بَاعِثًا عَلَى اسْتِزَادَتِهِ .

وَالْعَرَبُ تَقُولُ : « لَوْلَا الْوِئَامُ لَهَلَكَ الْأَنَامُ » ، أَيْ : لَوْلَا أَنَّ النَّاسَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَيَقْتَدِي بِهِمْ فِي الْخَيْرِ لَهَلَكُوا ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ : « مِنْ خَيْرِ الِاخْتِيَارِ صُحْبَةُ الْأَخْيَارِ ، وَ مِنْ شَرِّ الِاخْتِيَارِ مَوَدَّةُ الْأَشْرَارِ » .

وَ هَذَا صَحِيحٌ ؛ لِأَنَّ لِلْمُصَاحَبَةِ تَأْثِيرًا فِي اكْتِسَابِ الْأَخْلَاقِ ، فَتَصْلُحُ أَخْلَاقُ الْمَرْءِ بِمُصَاحَبَةِ أَهْلِ الصَّلَاحِ ، وَ تَفْسُدُ بِمُصَاحَبَةِ أَهْلِ الْفَسَادِ . وَ لِذَلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ :

رَأَيْت صَلَاحَ الْمَرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ ... وَ يُعْدِيهِمْ عِنْدَ الْفَسَادِ إذَا فَسَدْ
يُعَظَّمُ فِي الدُّنْيَا بِفَضْلِ صَلَاحِهِ ... وَ يُحْفَظُ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي الْأَهْلِ وَ الْوَلَدْ

و قال أبو بَكْرٍ الْخُوَارِزْمِيّ :

لَا تَصْحَبْ الْكَسْلَانَ فِي حَالَاتِهِ ... كَمْ صَالِحٍ بِفَسَادِ آخَرَ يَفْسُدُ
عَدْوَى الْبَلِيدِ إلَى الْجَلِيدِ سَرِيعَةٌ ... وَ الْجَمْرُ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخْمُدُ

« المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » ، أي : أنه يجذبه خليله إلى دينه و مذهبه ، و لقوة هذا المعنى و تأثيره في النفوس ، شاع على الألسنة قول الشاعر :

عن المرء لا تسأل و سلْ عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

و ليس إعداء الجليس بجليسه في خلقه بمقاله و فعاله فقط ، بل بالنظر إليه ، فالنظر في الصورة يؤثر في النفوس أخلاقًا مناسبة لخلق المنظور إليه ، فإن من دامت رؤيته لمسرور سر أو لمحزون حزن ، و ليس ذلك في الإنسان فقط بل في الحيوانات و النبات .

فإن الجمل الصعب قد يصير ذلولًا بمقارنة الذلل ، و الذلول قد ينقلب صعبًا بمقارنة الصعاب ، و الريحانة الغضة قد تذبل بمقارنة الذابلة ، و لهذا يلتقط أصحاب الفلاحة الرمم عن الزرع لئلَّا تفسدها ، و معلوم أن الماء و الهواء يفسدان بمجاورة الجيفة إذا قربت منهما ، و ذلك مما لا ينكره ذو تجربة ، فإذا كانت هذه الأشياء قد بلغت في قبول التأثير هذا المبلغ ، فما الظن بالنفوس البشرية التي موضوعها على قبول صور الأشياء خيرها و شرها ؟ ، فقد قيل : إنما سمي الإنس إنسًا ، لأنه يأنس بما يراه إن خيرًا و إن شرًّا .

قال الغزالي رحمه الله في الإحياء : « عْلَمْ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِلصُّحْبَةِ كُلُّ إِنْسَانٍ » .

وَ لَا بُدَّ أَنْ يَتَمَيَّزَ بِخِصَالٍ وَ صِفَاتٍ يَرْغَبُ بِسَبَبِهَا فِي صُحْبَتِهِ ، و تشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة ، إذ معنى الشرط مالا بد منه للوصول إلى المقصود ، فبالإضافة إلى المقصود تظهر الشروط .
فانظر أخي المسلم إلى هذا الكلام النفيس ، و اسأل نفسك عن صاحبك ، هل يعينك على طاعة الله أم يعينك على معصية الله ؟

فهل أطعت النبي صلى الله عليه و سلم و نظرت من تصاحب ومن تصادق ، و لا تقل : أنا أعرف فلان منذ سنوات طويلة فكيف أقطع علاقتي به ؟ ، نقول لك :قد تعرف إنسان منذ أيام قليلة لكن يعينك على عمل الخير ، و قد تعرف إنسان منذ سنوات لكنّه يعينك على عمل الشر ، و احذر من صاحب السوء ، فإنَّ الصاحب ساحب و الطباع سراقة .

فانظر معي إلى مشاهد يوم القيامة ، لتعرف من تصاحب :

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولا

١- مظاهر الندم و الحسرة على سوء اختيار الصاحب :

فانظر و تدبر هذا المشهد المهيب و الندم لشديد ، الذي جعل الظالم يعض على يديه و يأكلها من شدة الندم ، لأنه أساء اختيار الصاحب ، و اسأل نفسك : هل تتمنى أن تكون في مثل هذا المشهد ؟ ، بالطبع لا ، إذن اختار من تصاحب .

٢- اللعن و العداوة في حوار إبراهيم مع قومه قال لهم :

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ) العنكبوت ٢٥ .

فانظر إلى قوله تعالى : (إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) :

أي : كانوا يتقربون إلى بعضهم البعض بمعصية الله ، ثم إذا حشروا بين يدي الله ضعافاً أذلاء ، يكفر بعضهم ببعض و يلعن بعضهم بعضًا .

٣- الخصومة و إلقاء التهم :

قال تعالى : (وَ لَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ) سبأ ٣١-٣٢ .

و هذا مشهد آخر لحوار يدور بين أهل النار الذين كانوا متحابين في الدنيا ، الفريق الاول يقول للفريق الثاني : أنت السبب في أنِّي لم أصلي ، و أنت السبب في أنِّي كنت أفعل المعاصي ، فيرد عليه الفريق الثاني بأن قال : بل كنتم مجرمين .

٤- الانتقام :

قال تعالى : (وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ) فصلت ٢٩ .

و قال تعالى : (وَ قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) الأحزاب ٦٧-٦٨ .

و نهى الله أن نصاحب أهل الغفلة الذين عبدوا هواهم و شهواتهم و دنياهم ، قال تعالى : (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) الكهف ٢٨ .

و أمرنا بمصاحبه أهل الدين ، فقال : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) الكهف ٢٨.

و أعطانا النبي صلى الله عليه و سلم مثالًا جميلًا لصاحب الخير و صاحب الشر ، عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَ نَافِخِ الْكِيرِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَ إِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَ إِمَّا أَن تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَ نَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ وَ إِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فعندما تصاحب أهل الدين و الخير ، فأنت لن تجد منهم إلا كل خير ، فإذا طلبت النصيحة أعطوك ، و إن مررت بما تكره واسوك ، و إن ضل بك الطريق أعانوك .

أخي المسلم ، أختي المسلمة : علينا جميعًا أن ننظر و نتدبر فيمن نصاحب ، هل نصاحب حامل المسك أم نافخ الكير ؟

و أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم من نصاحب من نصاحب ، عن أبي سعيد أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَقُولُ: « لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَ لَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَ أَبُو دَاوُدَ و الدارمي و حسنه الألباني.

أقوال السلف في اختيار الصاحب :

قال صاحب روضه العقلاء :

قال أَبُو حاتم رَضِيَ اللَّه عنه : « إنَّ من أعظم الدلائل على معرفة مَا فيه المرء من تقلبه و سكونه ، هو الاعتبار بمن يحادثه و يوده ، لأن المرء على دين خليله و طير السماء على أشكالها تقع ، و ما رأيت شيئا أدل على شيء و لا الدخان على النار مثل الصاحب على الصاحب » .

و كان مالك رحمه الله يقول : « الناس أشكال كأجناس الطير ، الحمام مع الحمام و الغراب مع الغراب و البط مع البط و الصعو مع الصعو ، و كل إنسان مع شكله » .

وقال المنتصر بْن بلال الأنصاري :

يزين الفتى في قومه و يشينه ... و في غيرهم أخدانه و مداخله
لكل امرئ شكل من الناس مثله ... و كل امرئ يهوى إلى من يشاكله

قال أَبُو حاتم رحمه الله : « العاقل يجتنب المريب في نفسه ، و يفارق صحبة المتهم في دينه ، لأن من صحب قومًا عرف بهم و من عاشر امرئ نسب إليه ، و الرجل لا يصاحب إلا مثله أو شكله ، فإذا لم يجد المرء بدًا من صحبة الناس ، تحرى صحبة من زانه إذا صحبه و لم يشنه إذا عرف به ، و إن رأى منه حسنة عدها ، و إن رأى منه سيئةً سترها ، و إن سكت عنه ابتدأه و إن سأله أعطاه » .

و قال الحسن ابن على رضي الله عنهما :

إنَّ أخاك الحق من كان معك ... و من يضر نفسه لينفعك
و من إذا ريب الزمان صدعك ... شتت شمل نفسه ليجمعك

و قال أبو طالب المكي رحمه الله : « لا تصحّ مؤاخاة مبتدع في الله تعالى ، و لا محبة فاسق يصحب على فسوقه » .

و اعلم أيها المسلم أنَّ المرء مع من أحب كما قال النبي صلى الله عليه و سلم ، عن ابنِ مسعود رضي الله عنه قَالَ : جاءَ رجلٌ إلى رَسُولِ الله صلى الله عليه و سلم فَقَالَ : يَا رَسُول الله ، كَيْفَ تَقُولُ في رَجُلٍ أَحبَّ قَوْمًا وَ لَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ ؟ ، فَقَالَ رَسُول الله صلى الله عليه و سلم : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » . مُتَّفَقٌ عَلَيهِ

و عن أَنسٍ رضي اللَّه عنه ، أَنَّ أَعرابياً قَالَ لِرسول اللَّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ و سَلَّمِ : مَتَى السَّاعَةُ ؟ ، قَالَ رسولُ اللَّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ و سَلَّم : مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ ، قَالَ : حُب اللَّهِ و رسولِهِ ، قَالَ : أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ . متفقٌ عَلَيهِ ، و هذا لفظ مسلمٍ .

فإن كنت تحب النبي صلى الله عليه و سلم ، و أصحابه و أهل الدين و الخير فأنت معهم بإذن الله ، و إن كنت تحب أهل البدع و المعاصي فأنت معهم .

و في نهاية هذه الرحلة الطيبة ، نختتمها بهذا الحوار الجميل الذي دار بين سفيان الثوري و جعفر الصادق رحمهما الله :

عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى جَعْفَرِ الصَّادِقِ فَقُلْت لَهُ : يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ أَوْصِنِي ، قَالَ : يَا سُفْيَانُ لَا مُرُوءَةَ لِكَذُوب وَ لَا رَاحَةَ لِحَسُودٍ وَ لَا إخَاءَ لِمَلُولٍ وَ لَا سُؤْدَدَ لِسَيِّئِ الْخُلُقِ ، قُلْت: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ زِدْنِي ، قَالَ : يَا سُفْيَانُ كُفَّ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ . تَكُنْ عَابِدًا وَ ارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَك تَكُنْ مُسْلِمًا ، وَ اصْحَبْ النَّاسَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يَصْحَبُوك بِهِ تَكُنْ مُؤْمِنًا ، وَ لَا تَصْحَبْ الْفَاجِرَ فَيُعَلِّمَك مِنْ فُجُورِهِ، أَيْ لِلْحَدِيثِ: « الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ » ؛ وَ شَاوِرْ فِي أَمْرِك الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ . قُلْت : يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ زِدْنِي ، قَالَ : يَا سُفْيَانُ مَنْ أَرَادَ عِزًّا بِلَا عَشِيرَةٍ وَ هَيْبَةً بِلَا سُلْطَانٍ

فَلْيَخْرُجْ مِنْ ذُلِّ مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، قُلْت : يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ زِدْنِي ، قَالَ : أَدَّبَنِي أَبِي بِثَلَاثٍ : قَالَ لِي : أَيْ بُنَيَّ إنَّ مَنْ يَصْحَبْ صَاحِبَ السُّوءِ لَا يَسْلَمْ ، وَ مَنْ يَدْخُلْ مَدَاخِلَ السُّوءِ يُتَّهَمْ ، وَ مَنْ لَا يَمْلِكْ لِسَانَهُ يَنْدَمْ .

أخي المسلم أختي المسلمة : بعد هذه الرحلة الطويل مع اختيار الصاحب ، يبقى سؤال : كيف نختارمن نصاحب ؟ .

و هناك سؤال يطرح نفسه : المسلم يعيش فى بلاد غير المسلمين أو أكثر من حوله من غير المسلمين من أهل الفسق ، فماذا يفعل هل يعتزلهم أم يهجرهم أم يصادقهم ؟
نقول إنَّ الله سبحانه و تعالى جعل لنا قاعدة في التعامل مع غير المسلمين ، و هي قوله تعالى : (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)) سورة الممتحنة .

ففي هذه الآية أحكام التعايش مع غير المسلمين ـ خاصة إن كان التعايش في بلادهم ـ ، فعلى المسلم أن يحسن إليهم في المعاملات لا يرون منه إلا كل خير ليكون مثلًا جيدًا للمسلمين و يكون سفيرًا للإسلام ، لكن لا يطلعهم على أسراره و لا يأتمنهم على أبنائه ، و لا يكثر من زيارتهم و لا يتخذهم أولياء من دون الله ، و لا لكنه يجوز له زيارة مرضاهم و التعزية في ميتهم و قبول دعوتهم للطعام ، و هذا خاص باليهود و النصارى ، فقد أحل الله لنا طعام أهل الكتاب من اليهود و النصارى ، فقال تعالى : (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ) المائدة٥ ؛ لكن من هم ليسوا من أهل الكتاب فلا يجوز حضور دعواتهم إلى الطعام .

و الآن هيا بنا ننظر كيف نختار الصديق :

ما ذاقتِ النَفسُ على شَهوةٍ ... أَلَذَّ مِن حُبِّ صَديقٍ أَمين
من فاتَهُ وُدُّ أَخٍ صالِحٍ ... فَذَلِكَ المَغبونُ حَقَّ اليَقين

« عاشروا الناس ، فإن عشتم حنوا إليكم ، و إن متم بكوا عليكم » .

شروط الصحبة و الصداقة :

قال العلماء : إذا طلبت رفيقا ليكون شريكك في التعلم ، و صاحبك في أمر دينك ودنياك ، فراع فيه خمس خصال :

الأولى : العقل : فلا خير في صحبة الأحمق ، فإلى الوحشة و القطيعة يرجع آخرها ، و أحسن أحواله أن يضرك و هو يريد أن ينفعك ، و العدو العاقل خير من الصديق الأحمق .

فَلا تَصحَب أَخا الجَهلِ ... وَ إِياكَ وَإِياهُ
فَكَم مِن جاهِلٍ أَردى ... حَليماً حينَ آخاهُ
يُقاسُ المَرءُ بِالمَرءِ ... إِذا ما المَرءُ ماشاهُ
كَحَذوِ النَعلِ بِالنَعلِ ... إِذا مالنَعلُ حاذاهُ
وَ لِلشيءِ مِنَ الشيءِ ... مَقاييسٌ وَأَشباهُ
وَ لِلقَلبِ عَلى القَلبِ ... دَليلٌ حينَ يَلقاهُ

الثانية: حسن الخلق: فلا تصحب من ساء خلقه ، و هو الذي لا يملك نفسه عند الغضب و الشهوة .

و قد جمعه علقمة العطاردي رحمه الله تعالى ، في وصيته لابنه لما حضرته الوفاة ، قال: يا بني إذا أردت صحبة إنسان فاصحب من إذا خدمته صانك ، و إن صحبته زانك ، و إن قعدت بك مؤنة مانك . اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها ، و إن رأى منك حسنةً عدها ، و إن رأى منك سيئةً سدها .
اصحب من إذا قلت صدق قولك ، و إن حاولت أمرا أمرك ، وإن تنازعتما في شر آثرك .

و قال علي رضي الله عنه رجزًا :
إن أخاكَ الحَقُ مَن كانَ مَعَك ... وَ مَن يَضر نَفسه لِيَنفَعَك
وَ مَن إذا ريبَ الزَمانُ صَدعَك ... شَتَتَ فيك شَملَهُ لِيَجمَعَك

الثالثة : الصلاح: فلا تصحب فاسقًا مصرًا على معصيةٍ كبيرة ، لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة ، و من لا يخاف الله لا تؤمن غوائله ، بل يتغير بتغير الأحوال و الأعراض، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه و سلم : (وَ لا تُطِع مَن أغفَلنا قَلبَهُ عَن ذِكرِنا وَ اتبَعَ هَواهُ وَكانَ أمرُه فُرُطا) الكهف ١٨ .

فاحذر صحبة الفاسق ؛ فإنَّ مشاهدة الفسق و المعصية على الدوام تزيل عن قلبك كراهية المعصية ، و تهون عليك أمرها ، و لذلك هان على القلوب معصية الغيبة لإلفهم لها ، و لو رأوا خاتمًا من ذهب أو ملبوسًا من حرير على فقيه لاشتد إنكارهم عليه ، و الغيبة أشد من ذلك .

الرابعة : ألا يكون حريصًا على الدنيا: فصحبة الحريص على الدنيا سم قاتل ؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه و الاقتداء ، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري ، فمجالسة الحريص تزيد في حرصك ، و مجالسة الزاهد تزيد في زهدك.

الخامسة: الصدق: فلا تصحب كذابًا ، فإنك منه على غرور ، فإنه مثل السراب ، يقرب منك البعيد ، و يبعد منك القريب.

و لعلك تعدم اجتماع هذه الخصال في سكان المدارس و المساجد ، فعليك بأحد أمرين :
إما العزلة و الانفراد ؛ ففيها سلامتك .. و إما أن تكون مخالطتك مع شركائك بقدر خصالهم ، بأن تعلم أن الأخوة ثلاثة : أخ لآخرين فلا تراع فيه إلا الدين ، وأخ لدنياك فلا تراع فيه إلا الخلق الحسن ، وأخ لتأنس به فلا تراع فيه إلا السلامة من شره و فتنته و خبثه .
و الناس ثلاثة : أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه ، و الآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت ، و الثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط ، و لكن العبد قد يتسلى به ، وهو الذي لا أنس فيه و لا نفع ؛ فتجب مداراته إلى الخلاص منه ، و في مشاهدته فائدة عظيمة إن وفقت لها ، و هو أن تشاهد من خبائث أحواله وأفعاله ما تستقبحه فتجتنبه؛ فالسعيد من وعظ بغيره، والمؤمن مرآة المؤمن .

و قيل لعيسى عليه السلام : من أدبك ؟ ، فقال : ما أدبني أحد ، و لكن رأيت جهل الجاهل فاجتنبته . و لقد صدق على نبينا و عليه الصلاة والسلام فلو اجتنب الناس ما يكرهونه من غيرهم ، لكملت آدابهم و استغنوا عن المؤدبين .

أَوْصَى علقمة ابْنَهُ فَقَالَ : « يَا بُنَيَّ إِذَا عَرَضَتْ لَكَ إِلَى صُحْبَةِ الرِّجَالِ حَاجَةٌ فَاصْحَبْ مَنْ إِذَا خَدَمْتَهُ صَانَكَ، وَإِنْ صَحِبْتَهُ زَانَكَ، وَإِنْ قَعَدَتْ بِكَ مَؤُونَةٌ مَانَكَ، وَاصْحَبْ مَنْ إِذَا مَدَدْتَ يَدَكَ بِخَيْرٍ مَدَّهَا، وَإِنْ رَأَى مِنْكَ حَسَنَةً عَدَّهَا، وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً سَدَّهَا. اصْحَبْ مَنْ إِذَا سَأَلْتَهُ أَعْطَاكَ، وَإِنْ سَكَتَّ ابْتَدَاكَ، وَإِنْ نَزَلَتْ بِكَ نَازِلَةٌ وَاسَاكَ، اصْحَبْ مَنْ إِذَا قُلْتَ صَدَّقَ قَوْلَكَ، وَإِنْ حَاوَلْتَ أَمْرًا آمَرَكَ، وَإِنْ تَنَازَعْتُمَا آثَرَكَ » .

وَ قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : « لَا تَصْحَبْ إِلَّا أَحَدَ رَجُلَيْنِ: رَجُلًا تَرْتَفِقُ بِهِ فِي أَمْرِ دُنْيَاك أَوْ رَجُلًا تَزِيدُ مَعَهُ وَتَنْتَفِعُ بِهِ فِي أَمْرِ آخِرَتِك، وَالِاشْتِغَالُ بِغَيْرِ هَذَيْنِ حُمْقٌ كَبِيرٌ، وَأَمَّا الْحَرِيصُ عَلَى الدُّنْيَا فَصُحْبَتُهُ سُمٌّ قَاتِلٌ ؛ لِأَنَّ الطِّبَاعَ مَجْبُولَةٌ عَلَى التَّشَبُّهِ وَالِاقْتِدَاءِ ، بَلِ الطَّبْعُ يَسْرِقُ مِنَ الطَّبْعِ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي صَاحِبُهُ، فَمُجَالَسَةُ الْحَرِيصِ عَلَى الدُّنْيَا تُحَرِّكُ الْحِرْصَ ، وَ مُجَالَسَةُ الزَّاهِدِ تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا، فَلِذَلِكَ تُكْرَهُ صُحْبَةُ طُلَّابِ الدُّنْيَا وَتُطْلَبُ صُحْبَةُ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ » .

قَالَ لقمان لِابْنِهِ : « يَا بُنَيَّ جَالِسِ الْعُلَمَاءَ وَ زَاحِمْهُمْ بِرُكْبَتَيْكَ ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ لَتَحْيَا بِالْحِكْمَةِ كَمَا تَحْيَا الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ بِوَابِلِ الْمَطَرِ » .

ثم بعد ذلك عليك أن تعرف حقوق الصحبة .

مراعاة حقوق الصحبة و آداب الأخوة في الله :

١- فِي الْمَالِ :

و هذا الحق يحتاج إلى توضيح ، فقد يقول بعض الناس فلان مسرف مبذر في المال و دائما يضيع المال ، و إذا اخذ قرضا لا يرده نحن لا نتكلم عن هذا النوع انما نتكلم عن اخوك الذى عاشرته وتعرف اماناته وعزة نفسه وورعه فمرت به حادثه من حوادث الزمان احوجته الى المال فانت اولى الناس بمواساته .

وَالْمُوَاسَاةُ بِالْمَالِ مَعَ الْأُخُوَّةِ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبَ :

أَدْنَاهَا: أَنْ تُنْزِلَهُ مَنْزِلَةَ خَادِمِكَ فَتَقُومَ بِحَاجَتِهِ مِنْ فَضْلَةِ مَالِكَ، فَإِذَا سَنَحَتْ لَهُ حَاجَةٌ وَكَانَتْ عِنْدَكَ فَضْلَةٌ عَنْ حَاجَتِكَ أَعْطَيْتَهُ ابْتِدَاءً وَ لَمْ تُحْوِجْهُ إِلَى السُّؤَالِ ، فَإِنْ أَحْوَجْتَهُ إِلَى السُّؤَالِ فَهُوَ غَايَةُ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ الْأُخُوَّةِ .
الثَّانِيَةُ : أَنْ تُنْزِلَهُ مَنْزِلَةَ نَفْسِكَ وَ تَرْضَى بِمُشَارَكَتِهِ إِيَّاكَ فِي مَالِكَ ، وَ نُزُولِهِ مَنْزِلَتَكَ حَتَّى تَسْمَحَ بِمُشَاطَرَتِهِ فِي الْمَالِ .
وَ الثَّالِثَةُ : هِيَ الْعُلْيَا أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ وَ تُقَدِّمَ حَاجَتَهُ عَلَى حَاجَتِكَ ، وَ هَذِهِ رُتْبَةُ الصِّدِّيقِينَ وَ مُنْتَهَى رُتْبَةِ الْمُتَحَابِّينَ ، وَ مُنْتَهَى هَذِهِ الرُّتْبَةِ الْإِيثَارُ بِالنَّفْسِ أَيْضًا .

٢- الْحَقُّ الثَّانِي فِي الْإِعَانَةِ بِالنَّفْسِ :

وَذَلِكَ فِي قَضَاءِ الْحَاجَاتِ وَ الْقِيَامِ بِهَا قَبْلَ السُّؤَالِ وَ تَقْدِيمِهَا عَلَى الْحَاجَاتِ الْخَاصَّةِ ، وَ هَذِهِ أَيْضًا لَهَا دَرَجَاتٌ ، فَأَدْنَاهَا الْقِيَامُ بِالْحَاجَةِ عِنْدَ السُّؤَالِ وَ الْقُدْرَةِ وَ لَكِنْ مَعَ الْبَشَاشَةِ وَالِاسْتِبْشَارِ ، إِظْهَارِ الْفَرَحِ وَ قَبُولِ الْمِنَّةِ ، قَالَ بَعْضُهُمْ: « وَإِذَا اسْتَقْضَيْتَ أَخَاكَ حَاجَةً فَلَمْ يَقْضِهَا فَذَكِّرْهُ ثَانِيَةً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ نَسِيَ، فَإِنْ لَمْ يَقْضِهَا فَكَبِّرْ عَلَيْهِ » ، وَ اقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ) الْأَنْعَام ٣٦ .

وَ كَانَ فِي السَّلَفِ مَنْ يَتَفَقَّدُ عِيَالَ أَخِيهِ وَ أَوْلَادَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، يَقُومُ بِحَاجَتِهِمْ يَتَرَدَّدُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَيْهِمْ وَ يَمُونُهُمْ مِنْ مَالِهِ ، فَكَانُوا لَا يَفْقِدُونَ مِنْ أَبِيهِمْ إِلَّا عَيْنَهُ ، بَلْ كَانُوا يَرَوْنَ مِنْهُمْ مَا لَمْ يَرَوْا مِنْ أَبِيهِ فِي حَيَاتِهِ .

وَ كَانَ أَحَدُهُمْ يَتَرَدَّدُ إِلَى بَابِ دَارِ أَخِيهِ يَقُومُ بِحَاجَتِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْرِفُهُ أَخُوهُ وَ بِهَذَا تَظْهَرُ الشَّفَقَةُ ، وَ الْأُخُوَّةُ إِذَا لَمْ تُثْمِرِ الشَّفَقَةَ ، حَتَّى يُشْفِقَ عَلَى أَخِيهِ كَمَا يُشْفِقُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَا خَيْرَ فِيهَا.

وَ قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ : « مَنْ لَمْ تَنْتَفِعْ بِصَدَاقَتِهِ لَمْ تَضُرَّكَ عَدَاوَتُهُ » .

وَ بِالْجُمْلَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ حَاجَةُ أَخِيكَ مِثْلَ حَاجَتِكَ أَوْ أَهَمَّ مِنْ حَاجَتِكَ ، وَ أَنْ تَكُونَ مُتَفَقِّدًا لِأَوْقَاتِ الْحَاجَةِ غَيْرَ غَافِلٍ عَنْ أَحْوَالِهِ كَمَا لَا تَغْفُلُ عَنْ أَحْوَالِ نَفْسِك ، وَتُغْنِيهِ عَنِ السُّؤَالِ إِلَى الِاسْتِعَانَةِ ، وَ لَا تَرَى لِنَفْسِكَ حَقًّا بِسَبَبِ قِيَامِكَ بِهَا ، بَلْ تَتَقَلَّدُ مِنَّةً بِقَبُولِ سَعْيِك فِي حَقِّهِ وَ قِيَامِك بِأَمْرِهِ .

وَ قَالَ عطاء : « تَفَقَّدُوا إِخْوَانَكُمْ بَعْدَ ثَلَاثٍ ، فَإِنْ كَانُوا مَرْضَى فَعُودُوهُمْ أَوْ مَشَاغِيلَ فَأَعِينُوهُمْ أَوْ كَانُوا نَسُوا فَذَكِّرُوهُمْ ».

وَ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ : « لِجَلِيسِي عَلَيَّ ثَلَاثٌ: إِذَا دَنَا رَحَّبْتُ بِهِ ، وَ إِذَا حَدَّثَ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ ، وَ إِذَا جَلَسَ أَوْسَعْتُ لَهُ » .

وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى: (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ، إِشَارَةً إِلَى الشَّفَقَةِ وَ الْإِكْرَامِ .

وَمِنْ تَمَامِ الشَّفَقَةِ أَنْ لَا يَنْفَرِدَ بِطَعَامٍ لَذِيذٍ أَوْ بِحُضُورٍ فِي مَسَرَّةٍ دُونَهُ ، بَلْ يَتَنَغَّصُ لِفِرَاقِهِ وَ يَسْتَوْحِشُ بِانْفِرَادِهِ عَنْ أَخِيهِ .

٣- الْحَقُّ الثَّالِثُ فِي اللِّسَانِ :

وَ ذَلِكَ بِالسُّكُوتِ مَرَّةً وَبِالنُّطْقِ أُخْرَى .

أَمَّا السُّكُوتُ فَهُوَ أَنْ يَسْكُتَ عَنْ ذِكْرِ عُيُوبِهِ فِي غَيْبَتِهِ وَحَضْرَتِهِ بَلْ يَتَجَاهَلُ عَنْهُ وَيَسْكُتُ عَنِ الرَّدِّ عَلَيْهِ فِيمَا يَتَكَلَّمُ بِهِ وَلَا يُمَارِيهِ وَلَا يُنَاقِشُهُ، وَأَنْ يَسْكُتَ عَنِ التَّجَسُّسِ وَالسُّؤَالِ عَنْ أَحْوَالِهِ، وَإِذَا رَآهُ فِي طَرِيقٍ أَوْ حَاجَةٍ لَمْ يُفَاتِحْهُ بِذِكْرِ غَرَضِهِ مِنْ مَصْدَرِهِ وَمَوْرِدِهِ وَلَا يَسْأَلُ، فَرُبَّمَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ ذِكْرُهُ أَوْ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَكْذِبَ فِيهِ، وَلْيَسْكُتْ عَنْ أَسْرَارِهِ الَّتِي بَثَّهَا وَلَا يَبُثُّهَا إِلَى غَيْرِهِ الْبَتَّةَ وَلَا إِلَى أَخَصِّ أَصْدِقَائِهِ، وَلَا يَكْشِفُ شَيْئًا مِنْهَا وَلَوْ بَعْدَ الْقَطِيعَةِ وَالْوَحْشَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ لُؤْمِ الطَّبْعِ وَخُبْثِ الْبَاطِنِ، وَأَنْ يَسْكُتَ عَنِ الْقَدْحِ فِي أَحْبَابِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، وَأَنْ يَسْكُتَ عَنْ حِكَايَةِ قَدْحِ غَيْرِهِ فِيهِ، فَإِنَّ الَّذِي سَبَّكَ مَنْ بَلَّغَكَ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْفِيَ مَا يَسْمَعُ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ فَإِنَّ السُّرُورَ أَوَّلًا بِهِ يَحْصُلُ مِنَ الْمُبَلِّغِ لِلْمَدْحِ ثُمَّ مِنَ الْقَائِلِ، وَإِخْفَاءُ ذَلِكَ مِنَ الْحَسَدِ .

وَ بِالْجُمْلَةِ فَلْيَسْكُتْ عَنْ كُلِّ كَلَامٍ يَكْرَهُهُ جُمْلَةً وَ تَفْصِيلًا ، إِلَّا إِذَا وَجَبَ عَلَيْهِ النُّطْقُ فِي أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ وَ لَمْ يَجِدْ رُخْصَةً فِي السُّكُوتِ ، فَإِذْ ذَاكَ لَا يُبَالِي بِكَرَاهَتِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ إِحْسَانٌ إِلَيْهِ فِي التَّحْقِيقِ وَ إِنْ كَانَ يُظَنُّ أَنَّهَا إِسَاءَةٌ فِي .

٤- تحسين العيوب :

و منها تحسين ما يعانيه من عيوب أصحابه ؛ فقد قال ابن مازن : « المؤمن يطلب معاذير إخوانه ، و المنافق يطلب عثراتهم » ، و قال حمدون القصار : « إذا زل أخ من إخوانك ، فاطلب له تسعين عذراً ، فإن لم يقبل ذلك فأنت المعيب ».

٥- الصفح عن العثرات و العفو عن الزلات و الهفوات :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

هَفْوَةُ الصَّدِيقِ إِنْ كَانَتْ فِي دِينِهِ فَلَا بُدَّ مِنَ التَّلَطُّفِ فِي نُصْحِهِ كَمَا قَدَّمْنَا ، فَإِنْ أَصَرَّ فَمِنَ السَّلَفِ مَنْ رَأَى مُقَاطَعَتَهُ

، وَ مِنْهُمْ مَنْ رَأَى إدَامَةَ حَقِّ مَوَدَّتِهِ وَ بُغْضِ عَمَلِهِ ، وَ أَمَّا زَلَّتُهُ فِي حَقِّهِ بِمَا يُوجِبُ إيحَاشَهُ ، فَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ الْأَوْلَى الْعَفْوُ وَ الِاحْتِمَالُ ، بَلْ كَانَ مَا يَحْتَمِلُ تَنْزِيلُهُ عَلَى وَجْهٍ حَسَنٍ وَ يُتَصَوَّرُ تَمْهِيدُ عُذْرٍ فِيهِ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ فَهُوَ وَاجِبٌ بِحَقِّ الْأُخُوَّةِ ، فَقَدْ قِيلَ : « يَنْبَغِي أَنْ تَسْتَنْبِطَ لِزَلَّةِ أَخِيك سَبْعِينَ عُذْرًا ، فَإِنْ لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُك فَرُدَّ اللَّوْمَ عَلَى نَفْسِك فَتَقُولُ لِقَلْبِك: مَا أَقْسَاك يَعْتَذِرُ إلَيْك أَخُوك سَبْعِينَ عُذْرًا ، فَلَا تَقْبَلُهُ فَأَنْتَ الْمَعِيبُ لَا أَخُوك » .

وَ قَالَ الْأَحْنَفُ : « حَقُّ الصَّدِيقِ أَنْ تَحْتَمِلَ مِنْهُ ثَلَاثًا : ظُلْمُ الْغَضَبِ وَ ظُلْمَ الدَّالَّةِ وَ ظُلْمُ الْهَفْوَةِ » ، وَ مَهْمَا اعْتَذَرَ إلَيْك أَخُوك كَاذِبًا كَانَ أَوْ صَادِقًا فَاقْبَلْ عُذْرَهُ ، فَالْمُؤْمِنُ إنْ غَضِبَ فَهُوَ سَرِيعُ الرِّضَاءِ .

وَ يَنْبَغِي أَنْ لَا يُبَالِغَ فِي الْبَغْضَةِ عِنْدَ الْوَقِيعَةِ ، قَالَ تَعَالَى : (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً) الممتحنة ٧ .

وَ قَالَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « لَا يَكُنْ حُبُّك كَلَفًا وَ لَا بُغْضُك تَلَفًا » ، وَ هُوَ أَنْ تُحِبَّ تَلَفَ صَاحِبِك .

و قال بعضهم : « تناسى مساوئ الإخوان يدم لك ودهم » .

٦- ترك الحسد :

و منها ألا يحسدهم على ما يرى عليهم من آثار نعمة الله ، بل يفرح بذلك ، و يحمد الله على ذلك كما يحمده إذا كانت عليه ؛ فإنَّ الله تعالى ذم الحاسدين على ذلك بقوله : (أَم يَحسُدُونَ الناسَ عَلى ما أَتاهُمُ اللَهُ مِن فَضلِهِ) النساء ٥٤ .

٧- سلامة القلب و إسداء النصيحة :

و منها سلامة قلبه للإخوان ، و النصيحة لهم ، و قبولها منهم ، لقول النبي صلى الله عليه و سلم : « الدين النصيحة » صحيح .

٨- عدم حنث الوعد :

و منها ألا يعدهم و يخالفهم ، فإنه نفاق .

قال عليه الصلاة و السلام: « علامة المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، و إذا وعد أخلف ، و إذا ائتمن خان » .
و قال الثوري رحمه الله : « لا تعد أخاك و تخلفه ، فتعود المحبة بغضة » .

وأنشدوا :

يا واعِداً أَخلَفَ في وَعدِهِ ... ما الخُلفُ مِن سيرَةِ أَهلِ الوَفا
ما كانَ ما أَظهَرتَ مِن وُدِّنا ... إِلّا سِراجاً لاحَ ثُمَ اِنطَفا

٩- حسن الظن :

و منها حمل كلام الإخوان على أحسن الوجوه ما وجدت ذلك ، قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه : « كتب إلي بعض إخواني من الصحابة ، أن ضع أمر أخيك على الأحسن و لا تسيء به الظن » .

١٠- حفظ العهد :

و منها ملازمة الأخوة ، و المداومة عليها ، و ترك الملل ؛ فقد قال النبي صلى الله عليه و سلم : « أحب الأعمال إلى الله أدومها ، و إن قل » صحيح .

و قال محمد بن واسع : « و ليس لملولٍ صديقٌ و لا لحاسدٍ غناءٌ » .

١١- إقلال العتاب :

ومنها الإغضاء عن الصديق في بعض المكاره ، و أنشد بعضهم :

غمِّضْ عَيني عَن صَديقي تَجَسُّماً ... كَأَنّي بِما يَأتي مِن الأَمرِ جاهِلُ
وَما بِيَ جَهلٌ غَيرَ أَنَّ خَليقَتي ... تُطيقُ اِحتمالَ الكُرهِ فيما تُحاوِلُ

و أيضًا قولهم :

إِذا كُنتَ في كُلِّ الأُمورِ مُعاتِباً ... صَديقَكَ لَم تَلقَ الَّذي لا تُعاتِبُه
فَعِش واحِداً أَو صِل أَخاكَ فَإِنَّهُ ... مُقارِفُ ذَنب مَرَّةً وُمُجانِبُه
إِذا أَنتَ لَم تَشرَب مِراراً عَلى القَذَى ... ظَمِئتَ وَأَيُّ الناسِ تَصفو مَشارِبُه

و العتاب يفسد المودة أحيانًا ، فإذا وقع من أخيك إليك شيء و سامحته فلا تعاتبه .
وجاء في قوله تعالى : (فاصفح الصفح الجميل) الحجر ٨٥ ، قالوا : الصفح الجميل أن يكون بغير عتاب .

١٢- ترك الاستخفاف :

و منها ترك الاستخفاف بأحد من الخلق ، و معرفة كل واحد منهم ليكرم على قدره .

قال ابن المبارك : « من استخف بالعلماء ذهبت آخرته ، و من استخف بالأمراء ذهبت دنياه ، و من استخف بالإخوان ذهبت مروءته » .

١٣- ملازمة الصديق و عدم قطعه لعيب وقع منه :

ومنها ألا تقطع صديقاً بعد مصادقته ، و لا ترده بعد قبول :

لا تَمدَحَنَّ امرأً حَتّى تُجرِّبَهُ ... وَ لا تَذُمَّنَّهُ مِن غَيرِ تَجريب
فَإِنَّ حَمدَكَ مَن لَم تَبلُهُ سَرَفٌ ... وَ إِنَّ ذَمَّكَ بَعدَ الحَمدِ تَكذيبُ

قال حمدون القصار: « اقبلوا إخوانكم بالإيمان ، و ردوهم بالكفر ؛ فإن الله سبحانه و تعالى أوقع ما بين هذين في مشيئته » ، و قال تعالى : (إِنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أَن يُشرَكَ بِهِ وَيَغفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشاءُ) النساء ٤٨ .

١٤- التواضع مع الصديق :

و منها التواضع للإخوان ، و ترك التكبر عليهم .

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : « إنَّ الله عز وجل أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » . صحيح

١٥- المشاركة الوجدانية :

تشارك أخوك في فرحه و حزنه ، و لا تظهر له الفرح و هو حزين ، و لا تظهر له الحزن و هو فرح .

لما مرض محمد ابن الحكم ذهب الشافعي لزيارته ، فلما رآه نائمًا يتألم ، عاد الشافعي إلى بيته فمرض من الحزن ، فعرف محمد ابن الحكم أنَّ الشافعي مريض ، فذهب يتكأ على إخوانه لزيارته ، فلما رآه الشافعي قام إليه يعتنقه ، و يقول:

ذهبت إلى الحبيب أزوره فمرضت من حزني عليه
فجاء الحبيب يزورني فبرئت من نظري إليه

١٦- حفظ الأسرار :

مِنْ ذَلِكَ : أَنْ يَسْكُتَ عَنْ إِفْشَاءِ سِرِّهِ الَّذِي اسْتَوْدَعَهُ ، وَ لَهُ أَنْ يُنْكِرَهُ وَ إِنْ كَانَ كَاذِبًا فَلَيْسَ الصِّدْقُ وَاجِبًا فِي كُلِّ مَقَام ، فَإِنَّهُ كَمَا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يُخْفِيَ عُيُوبَ نَفْسِهِ وَ أَسْرَارَهُ وَ إِن احْتَاجَ إِلَى الْكَذِبِ فَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ فِي حَقِّ أَخِيهِ، فَإِنَّ أَخَاهُ نَازِلٌ مَنْزِلَتَهُ وَ هُمَا كَشَخْصٍ وَاحِدٍ لَا يَخْتَلِفَانِ إِلَّا بِالْبَدَنِ ، هَذِهِ حَقِيقَةُ الْأُخُوَّةِ .

قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : كَيْفَ حِفْظُكَ لِلسِّرِّ ؟ ، قَالَ: « أَنَا قَبْرُهُ ، فَإِنَّ صُدُورَ الْأَحْرَارِ قُبُورُ الْأَسْرَارِ ».

وَأَفْشَى بَعْضُهُمْ سِرًّا لَهُ إِلَى أَخِيهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : « حَفِظْتَ » ، فَقَالَ : « بَلْ نَسِيتُ » .

١٧- الذب عن الإخوان :

الذب عن الإخوان من أهم حقوق الصحبة ، فإذا سمعت من يغتب أخيك أو يجرح فيه وهو غائب ، فمن حقوق الأخوة أن تذب عنه .

١٨- الدُّعاءُ لِلأَخِ :

فَتَدْعُو لَهُ فِي حَيَاتِهِ وَ مَمَاتِهِ بِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ وَ لِأَهْلِهِ وَكُلِّ مُتَعَلِّقٍ بِهِ كَمَا تَدْعُو لِنَفْسِكَ ، وَ فِي الْحَدِيثِ: « إِذَا دَعَا الرَّجُلُ لِأَخِيهِ فِي ظَهْرِ الْغَيْبِ ، قَالَ الْمَلَكُ : وَ لَكَ مِثْلُ ذَلِكَ » ، وَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: « دَعْوَةُ الرَّجُلِ لِأَخِيهِ فِي ظَهْرِ الْغَيْبِ لَا تُرَدُّ » .

وَ كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: « إِنِّي لَأَدْعُو لِسَبْعِينَ مِنْ إِخْوَانِي فِي سُجُودِي أُسَمِّيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ » ، وَ كَانَ محمد بن يوسف الأصفهاني يَقُولُ: « وَأَيْنَ مِثْلُ الأَخِ الصَّالِحِ ؟ ، أَهْلُكَ يَقْتَسِمُونَ مِيرَاثَكَ وَ يَتَنَعَّمُونَ بِمَا خَلَّفْتَ وَ هُوَ مُنْفَرِدٌ بِحُزْنِكَ مُهْتَمٌّ بِمَا قَدَّمْتَ وَ مَا صِرْتَ إِلَيْهِ ، يَدْعُو لَكَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَ أَنْتَ تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى » . وَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: « الدُّعَاءُ لِلْأَمْوَاتِ بِمَنْزِلَةِ الْهَدَايَا لِلْأَحْيَاءِ » .

١٩- الوفاء و الإخلاص :

وَ مَعْنَى الْوَفَاءِ : الثَّبَاتُ عَلَى الْحُبِّ وَ إِدَامَتُهُ إِلَى الْمَوْتِ مَعَهُ وَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَعَ أَوْلَادِهِ وَأَصْدِقَائِهِ ، فَإِنَّ الْحُبَّ إِنَّمَا يُرَادُ لِلْآخِرَةِ ، فَإِنِ انْقَطَعَ قَبْلَ الْمَوْتِ حَبِطَ الْعَمَلُ وَ ضَاعَ السَّعْيُ ، وَ رُوِيَ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أَكْرَمَ عَجُوزًا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ: « إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا أَيَّامَ خديجة وَ إِنَّ كَرَمَ الْعَهْدِ مِنَ الدِّينِ » .

فَمِنَ الْوَفَاءِ لِلْأَخِ مُرَاعَاةُ جَمِيعِ أَصْدِقَائِهِ وَ أَقَارِبِهِ وَ الْمُتَعَلِّقِينَ بِهِ ، وَ مُرَاعَاتُهُمْ أَوْقَعُ فِي قَلْبِ الصَّدِيقِ مِنْ مُرَاعَاةِ الْأَخِ فِي نَفْسِهِ ، فَإِنَّ فَرَحَهُ بِتَفَقُّدِ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِ أَكْثَرُ لِدَلَالَتِهِ عَلَى قُوَّةِ الشَّفَقَةِ وَ الْحُبِّ .

وَ مِنْ ثَمَرَاتِ الْمَوَدَّةِ فِي اللهِ أَنْ لَا تَكُونَ مَعَ حَسَدٍ فِي دِينٍ وَ دُنْيَا ، وَ كَيْفَ يَحْسُدُهُ وَ كُلُّ مَا هُوَ لِأَخِيهِ فَإِلَيْهِ تَرْجِعُ فَائِدَتُهُ ، وَ بِهِ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى الْمُحِبِّينَ فِي اللهِ تَعَالَى: (وَ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ) الْحَشْرِ ٩ ، وَ وُجُودُ الْحَاجَةِ هُوَ الْحَسَدُ .

وَ مِنَ الْوَفَاءِ : أَنْ لَا يَتَغَيَّرَ حَالُهُ فِي التَّوَاصُلِ مَعَ أَخِيهِ ، وَ إِنِ ارْتَفَعَ شَأْنُهُ وَ اتَّسَعَتْ وِلَايَتُهُ وَ عَظُمَ جَاهُهُ ، وَ التَّرَفُّعُ عَلَى الْإِخْوَانِ بِمَا يَتَجَدَّدُ مِنَ الأَحْوَالِ لُؤْمٌ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا ... مَنْ كَانَ يَأْلَفُهُمْ بِالْمَنْزِلِ الْخَشِنِ

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْوَفَاءِ مُوَافَقَةُ الْأَخِ فِيمَا يُخَالِفُ الْحَقَّ فِي أَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِالدِّينِ ، بَلْ مِنَ الْوَفَاءِ لَهُ الْمُخَالَفَةُ وَالنُّصْحُ لِلَّهِ .

وَ مِنْ آثَارِ الصِّدْقِ وَ الْإِخْلَاصِ وَ تَمَامِ الْوَفَاءِ أَنْ تَكُونَ شَدِيدَ الْجَزَعِ مِنَ الْمُفَارَقَةِ ، نَفُورَ الطَّبْعِ عَنْ أَسْبَابِهَا كَمَا قِيلَ :

وَجَدْتُ مُصِيبَاتِ الزَّمَانِ جَمِيعَهَا ... سِوَى فُرْقَةِ الْأَحْبَابِ هَيِّنَةَ الْخَطْبِ

وَ أَنْشَدَ « ابْنُ عُيَيْنَةَ « هَذَا الْبَيْتَ وَ قَالَ : « لَقَدْ عَهِدْتُ أَقْوَامًا فَارَقْتُهُمْ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً مَا يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ حَسْرَتَهُمْ ذَهَبَتْ مِنْ قَلْبِي « .

وَ مِنَ الْوَفَاءِ : أَنْ لَا يَسْمَعَ بَلَاغَاتِ النَّاسِ عَلَى صَدِيقِهِ.

اللهم أرنا الحق حقًا و ارزقنا إتباعه ، و أرنا الباطل باطلًا و ارزقنا اجتنابه ..

تربية الولد

إنّ الحمد لله، نحمده و نستعينه ، و نستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادي له ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمدًا عبده و رسوله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) آل عمران ١٠٢ ، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) النساء ١ ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) الأحزاب ٧٠ - ٧١ .

أما بعد ، فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله ، و أحسن الهدي هدي محمد ، و شر الأمور محدثاتها ، و كل محدثة بدعة و كل بدعة ضلالة ، و كل ضلالة في النار .

قال الأحنف بن قيس رحمه الله - و هو يعظ معاوية رضي الله عنه - : يا أمير المؤمنين هم ثمار قلوبنا و عماد ظهورنا ، و نحن لهم أرض ذليلة و سماء ظليلة و بهم نصول على كل جليلة . فإنْ طلبوا فأعطهم و إنْ غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودهم و يحبوك جهدهم .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، قَالَ : « إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ : إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » .

الإنسان إذا مات و أطلع على أمر الآخرة ، و ما فيها من أهوال و عاين ثواب الطاعة و عقاب المعصية ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا لو دقيقة فيعمل عملًا صالحًا ينتفع بثوابه ؛ و في هذا الحديث العظيم ثلاثة أعمال ينتفع بها الإنسان بعد موته : الصدقة الجارية و العلم الذي ينتفع به الناس و الولد الصالح .

لكن ليس العلم النافع في مقدور كل الناس ، و ليس كل الناس أغنياء فيصنعوا صدقة جارية ، فلا يبقى إلا ثواب الولد الصالح . و الإنسان لا يصح أن يكون صالحًا مصلحًا و ولده فاسدًا مفسدًا ، فكيف يقبل الناس النصح من إنسان و بيته خرب و ولده فاسد ؟! ، لذلك كان ضروريًا أن يبدأ الإنسان بإصلاح بيته و تربية ولده ، حتى يسعد ببره له في الدنيا و بدعائه له و هو مغيب تحت التراب .

و اعلم أخي المسلم أن الولد لصالح و الذرية الطيبة هي أمنية الأنبياء عليهم السلام ، و انظر إلى دعاء زكريا عليه السلام كما جاء في سورة آل عمران : (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ [٣٨]) ، و انظر إلى دعاء نبي الله إبراهيم عليه السلام كما جاء في سوره الصافات : (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ [١٠٠]) .

و الولد الفاسد نقمة و سبب من أسباب الكفر و سخط الله ، و موته فيه رحمه لأبويه ، قال تعالى - في سورة الكهف فيما حدث بين موسى و الخضر عليهما السلام - : (وَ أَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَ أَقْرَبَ رُحْمًا [٨٠]) .
انظر أخي الحبيب إلى قوله تعالى و هو يثبت الإيمان لأبوي الغلام ، لكنه سيكون سببًا في ضياع هذا الإيمان و تحوله إلى طغيان و كفر .

و أيضًا ما رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء : أنَّ الملك المسعود صاحب اليمن , لما مات ابنه،سرّ والده بموته لأنه كان يعسف التجار, و يشرب الخمر بمكة ، فالولد الفاسد وبال على أهله في الدنيا و الآخرة .

و من هنا كانت الأهمية القصوى في الوقوف على وسائل تربية الولد كما جاءت في شريعة الإسلام ، و ليس الشرائع الأخرى التي تُبيح للبنت أن تزني و تفعل ما تشتهى و ليس لأبوها أي ولاية عليها .

فهيا بنا في هذه الرحلة مع تربية الولد في الإسلام وحقوق الأبناء .

إنَّ أساس تربية الولد اختيار الأم الصالحة ، لأن الأم هي الأرض التي تحمل البذرة ، فكلما كانت الأرض خصبة و قوية و نقية جاء الزرع طيبًا حسنًا .
و لن نكثر من الكلام عن المرأة الصالحة ، لأن الكثير قد يقول : أنا تزوجت و انتهى الأمر ، و أريد أن اعرف كيف أربي ولدي ؟

نقول : أولًا - لمن لم يتزوج :
ما رواه البخاري عن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَالَ : « تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا وَ لِحَسَبِهَا وَ جَمَالِهَا وَ لِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ ، تَرِبَتْ يَدَاكَ » .

- أمَّا من تزوج و منَّ الله عليه و أعطاه الأولاد :
فليحمد الله على هذه النعمة ، و ليتق الله في زوجته و أولاده و لا يطعمهم إلا حلال .
و اعلم أخي المسلم أنَّ الولد بشارة ، و البشارة لا تكون إلا في الخير .

قال تعالى : (وَلَقَد جَاءَت رسلنَا إِبْرَاهِيم بالبشرى قَالُوا سَلاما قَالَ سَلام فَمَا لبث أَن جَاءَ بعجل حنيذ فَلَمَّا رأى أَيْديهم لَا تصل إِلَيْهِ نكرهم وأوجس مِنْهُم خيفَة قَالُوا لَا تخف إِنَّا أرسلنَا إِلَى قوم لوط وَامْرَأَته قَائِمَة فَضَحكت فبشرناها بِإسْحَاق وَمن وَرَاء إِسْحَاق يَعْقُوب) هود ٦٩-٧١.

و قال تعالى : (نبئهم عَن ضيف إِبْرَاهِيم إِذْ دخلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاما قَالَ إِنَّا مِنْكُم وجلون قَالُوا لَا توجل إِنَّا نبشرك بِغُلَام عليم قَالَ أبشرتموني على أَن مسني الْكبر فَبِمَ تبشرون قَالُوا بشرناك بِالْحَقِّ فَلَا تكن من القانطين قَالَ وَمن يقنط من رَحْمَة ربه إِلَّا الضالون) الحجر ٥١-٥٦.

و قال تعالى : (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نبشرك بِغُلَام اسْمه يحيى لم نجْعَل لَهُ من قبل سميا) مريم ٧٧ .

فاقبل بشارة ربك سواء كانت ذكر أم أنثى ، و قل : الحمد لله .

و الآن نبدأ في منهج التربية الإسلامي :

بدايةً نطرح قضية من القضايا المنتشرة في المجتمعات الشرقية المسلمة ، و هي قضية تفضيل الذكور عن الإناث .

الحقيقة هذه مسألة يعاني منها الكثير من الناس ، و قد كانت موجودة في الجاهلية ، قال تعالى : (وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) النحل ٥٨-٥٩ .

و كانوا يدفنون البنات و هم أحياء خوفًا من أنْ يجلبن عليهم العار ، و قد توعدهم الله تعالى فقال : (وَ إِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) التكوير ٨-٩ .

و السخط من إنجاب النساء من أخلاق الجاهلية المذمومة ، و كانوا في الجاهلية يهنون بعضهم بموت البنات ، و ماتت بنت لرجل من العرب فذهبوا إليه للعزاء ، فقال : و لما تعزونني ؟! ، إنَّ في موتها ثلاث فوائد ، قالوا : و ما هي ؟ ، قال: عورة سترها الله و مئونة كفاني إياها الله ، و هم أزاحه الله عني .

أمَّا الإسلام فقد جاء يرغب في الإناث ويجعل فيهن كل الخير و البركة ، ففيهنَّ الجنة و النجاة من النار ، لكن بشرط أنْ يحسن الإنسان تربيتهنَّ .

وَ فِي صَحِيح مُسلم من حَدِيث أنس بن مَالك قَالَ : قَالَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَ سلم : « من عَال جاريتين حَتَّى تبلغا جَاءَ يَوْم الْقِيَامَة أنا وَ هُوَ هَكَذَا وَ ضم إصبعيه » .

و في مسند أحمد من حديث عَائِشَة قَالَت : جَاءَت امْرَأَة وَ مَعهَا ابنتان لَهَا تَسْأَلنِي فَلم تَجِد عِنْدِي شَيْئا غير تَمْرَة وَاحِدَة ، فأعطيتها إِيَّاهَا ، فأخذتها فشقتها بَين ابنتيها وَ لم تَأْكُل مِنْهَا شَيْئا ، ثمَّ قَامَت فَخرجت هِيَ و ابنتاها ، فَدخل رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم على تفيئة ذَلِك ، فَحَدَّثته حَدِيثهَا ، فَقَالَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَ سلم : « من ابْتُلِيَ من هَذِه الْبَنَات بِشَيْء فَأحْسن إِلَيْهِنَّ كن لَهُ سترا من النَّار » .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَالَ : « لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ ثَلَاثُ بَنَاتٍ ، أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِنَّ ، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ » . صحيح الأدب المفرد

و أيضًا عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَهُمْ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ ، يُؤْوِيهِنَّ و يكفيهن و يرحمهن ، فقد وجبت لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةَ ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَعْضِ الْقَوْمِ : وَ ثِنْتَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ، قَالَ : « وَ ثِنْتَيْنِ ». صحيح أدب المفرد

و عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَالَ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُدْرِكُهُ ابْنَتَانِ ، فَيُحْسِنُ صُحْبَتَهُمَا ، إِلَّا أَدْخَلَتَاهُ الْجَنَّةَ » .

و بعض الناس إذا أنجبت له زوجته الإناث هجرها و بحث عن غيرها ، لكن العلم الحديث جاء ليثبت أنَّ الرجل هو المسئول جينيًا عن نوع الجنين ، لكن كل هذا بقدر الله و بأمر الله ، و ليس لأحد فيه دخل ، قال تعالى : (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا و إِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) الشورى ٤٩-٥٠ .

فهذه هبة من عند الله ، و هناك من حرم من الإنجاب فيتمنى أي شيء ، ذكر أو أنثى ، و ينفق الآلاف من الجنيهات ليحصل على طفل ، و كله بأمر الله و بقدر الله .

و الله يقول : (وَ عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُون) البقرة ٢١٦ .

أولًا - العلاقة بين الوالد و الولد :

إنَّ علاقة الابن بالأب من أهم العلاقات التي اهتم بها الإسلام .
و منزله الوالدين من الأمور التي لا يقدحها أي شيء مهما كان ، حتى الشرك بالله لا يقدح في عقوق الوالدين ، قال تعالى : (وَ إِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَ صَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) لقمان ١٥ .

و حب الآباء للأبناء حب فطرة ، مجبول عليه الأب ، لذلك فلا نرى القران أو السنة يوصيان الآباء بالأبناء ، لأن الأب لا يحتاج إلى من يوصيه على ولده ، و لم تأتِ الوصية إلا في مسالة الميراث ، فقال تعالى : (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) النساء ١١ .

و لكنَّ الله لم يوص الأب ببر أبنائه أو العطف عليهم ، لأنه مجبول على حب أبنائه و العطف عليهم ، و لننظر إلى يعقوب و يوسف عليهما السلام ، قال تعالى : (وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦)) يوسف .

يعقوب عليه السلام من كثره حزنه و بكاءه على يوسف أصيب في بصره ؛ لكن ما موقف يوسف ؟ ، لم نعلم أنّه أصابه شيء من فراقه لأبيه أو من حزنه على فراق أبيه ، أمّا يعقوب عليه السلام الأب المكلوم في فقد ابنه ، فكان لا يترك البكاء على يوسف شوقًا إليه وخوفًا عليه حتى أصيبت عينه ، و من شدة حبه لولده كان يعرف رائحة ثيابه !.

(اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥)) يوسف .

فاعلم أخي المسلم أنَّ ولدك لن يكون بارًا بك و أنت كبير ، إلا إنْ أحسنتَ تربيته ، و علمته طاعة ربه و احترام دينه .

أولًا - حقوق المولود على أبيه عند الميلاد :

١-عند ميلاد الطفل يختار الأب له أحسن الأسماء :

إنَّ مما عمت به البلوى أنْ نرى بعض المسلمين يختارون أسماء عجيبة لأبنائهم ، من أسماء اليهود و النصارى و لا ندري السبب إلا كأنَّهم يريدون أنْ يخلعوا هويتهم العربية الإسلامية .

و يكره أنْ يتسمى الولد باسم عبد النبي أو عبد أي شيء غير الله ، و أيضًا يكره أنْ يتسمى بأسماء الجبابرة و الظلمة مثل: فرعون و هامان و قارون ، و قد رأينا بعض الذين سموا أبناءهم بوش بعد حرب الكويت .!
فعلى الأب أن يختار لابنه أحسن الأسماء التي توافق هويتنا الإسلامية .

٢- و يذبح له العقيقة إن أمكن :

و دليل العقيقة ما رَوَاهُ الإِمَام أَحْمد فِي مُسْنده عَن أم كرز الْكَعْبِيَّة ، أَنَّهَا سَأَلت الرَّسُول صلى الله عَلَيْهِ وَ سلم عَن الْعَقِيقَة فَقَالَ : « عَن الْغُلَام شَاتَانِ وَ عَن الأُنْثَى وَاحِدَة وَ لَا يضركم ذكرانا كن أو إِنَاثًا » رَوَاهُ أَحْمد وَ التِّرْمِذِيّ وَ قَالَ هَذَا حَدِيث صَحِيح .

وَ عَن ابْن عَبَّاس أَن رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم ، عق عَن الْحسن وَ الْحُسَيْن كَبْشًا كَبْشًا . رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَ النَّسَائِيّ وَ لفظ النَّسَائِيّ بكبشين كبشين .

و يستحب أن تطبخ العقيقة لا أن توزع نيئة - نقله ابن القيم في تحفه المولود - .

٣- و يحنكه :

وَ فِي الصَّحِيحَيْنِ من حَدِيث أبي بردة عَن أبي مُوسَى قَالَ : « ولد لي غُلَام فَأتيت بِهِ إِلَى النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فَسَماهُ إِبْرَاهِيم وحنكه بتمر » .

وَ فِي الصَّحِيحَيْنِ من حَدِيث أنس بن مَالك قَالَ : كَانَ ابْن لأبي طَلْحَة يشتكي فَخرج أَبُو طَلْحَة فَقبض الصَّبِي فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو طَلْحَة قَالَ : مَا فعل الصَّبِي ؟ ، قَالَت : أم سليم هُوَ أسكن مِمَّا كَانَ ، فقربت إِلَيْهِ الْعشَاء فتعشى ثمَّ أصَاب مِنْهَا ، فَلَمَّا فرغ ، قَالَت : واروا الصَّبِي ؛ فَلَمَّا أصبح أَبُو طَلْحَة أَتَى رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فَأخْبرهُ ، فَقَالَ : أعرستم اللَّيْلَة ؟ ، قَالَ: نعم ، قَالَ : اللَّهُمَّ بَارك لَهما فَولدت غُلَاما ، فَقَالَ لي أَبُو طَلْحَة : احمله حَتَّى تَأتي بِهِ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَ سلم وَ بعثت بِهِ بتمرات ، فَأَخذه النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَ سلم ، فَقَالَ : أمعه شَيْء ؟ ، قَالُوا : نعم ، تمرات . فَأَخذهَا النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَ سلم فمضغها ثمَّ أَخذهَا من فِيهِ فَجَعلهَا فِي فِي الصَّبِي ثمَّ حنكه وَ سَماهُ عبد الله .

أمَّا حديث الأذان في أذن المولود اليمنى و الإقامة في أذنه اليسرى ، فهو ضعيف لا يجوز العمل به .

٤- الختان :

الختان و الختانة لغة : الاسم من الختن ، و هو قطع القلفة من الذكر ، و النواة من الأنثى ، كما يطلق الختان على موضع القطع .

و هو : واجب على الرجال ، و اختلفوا في حكم للنساء ما بين أنَّه سنة أو واجب ، و الراجح أنَّه واجب ، لقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « إِذَا الْتَقَى الْخِتَانَانِ وَجَبَ الْغُسْل » ، دليل على أنَّ النساء كن يختتن ؛ و لأن هناك فضلة فوجب إزالتها كالرجل .

- مقدار ما يقطع في الختان :
يكون ختان الذكور بقطع الجلدة التي تغطي الحشفة ، وتسمى القلفة و الغرلة ، بحيث تنكشف الحشفة كلها .
و يكون ختان الأنثى بقطع ما ينطلق عليه الاسم من الجلدة التي كعرف الديك فوق مخرج البول ؛ و السنة فيه أن لا تقطع كلها بل جزء منها .

و ذلك لحديث أم عطية - رضي الله عنها - ، أنَّ امرأة كانت تختن بالمدينة ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « اخفضي و لا تنهكي ، فإنِّه أنضر للوجه و أحظى عند الزوج » . السلسلة الصحيحة

- وقت الختان :
و يستحب ختانه في الصغر إلى سن التمييز لأنه أرفق به ؛ و لأنه أسرع برءاً فينشأ على أكمل الأحوال ؛ و الأمر متروك للطب ، فإذا كان الولد يتحمل فأفضل أن يختن في أسبوعه الأول .

٥- الرضاعة الطبيعية :

و هي من الحقوق التي أوجبها الله تعالى في كتابه ، فقال : (وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) البقرة ٢٣٣ .

و حدد المولى سبحانه و تعالى مدة الرضاع الشرعية ، لما فيها من حكمة إلهية ينتفع بها الولد .
و نجد بعض الأمهات يفطمن أولادهن بعد شهر أو شهرين ، و يلجأن إلى الألبان الصناعية ، مع أنَّ هذه الألبان تسبب الأمراض للأطفال ، مثل : السمنة المفرطة و المغص و الإمساك و أمراض القلب ، فاتقين الله في أبنائكم يا نساء المسلمين .

و ها هي أهم قواعد تربية الولد في الإسلام :

١- الصلاة و أن يكون الأبوان قدوة صالحة :
و أعظم و أهم شيء قبل البلوغ ؛ و الولد قبل البلوغ و هو صغير مثل الشجرة الصغيرة التي تأخذ و لا تعطي ، وتحتاج إلى العناية و الرعاية الدائمة حتى يصلب العود و تثبت الجذور و تتفرع و تثمر .

فأول هذه الرعاية أن تأمره بالصلاة ، عند أبو داوود عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاَةِ وَ هُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ ، وَ اضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَ هُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ سِنِين ، وَ فَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ » .

التعود على الصلاة في الصغر ، يعلمه تحمل المسؤولية و احترام المواعيد ، و الطاعة و الاعتماد على النفس ، و الاختلاط بالناس و التعامل معهم و احترام الكبير ، و الاعتياد على بيت الله تعالى .

و لما تأخر عمر بن عبد العزيز عن الصلاة ، لأن الجارية كانت ترجل له شعره ، فعرف أبوه فأمر بحلق الشعر ، و هو عقوبة كبيرة .

و قد كانت أم احمد بن حنبل تسخن له الماء ليصلي الليل ، ثم يذهب لصلاة الفجر ، و كان عمره ٧ سنوات .

و حديث النبي صلى الله عليه و سلم بالأمر عند سن سبع و الضرب عند سن عشر ، يرشدنا إلى التدرج ، و أنَّ الطفل قضى ثلاث سنوات متصلة في التدريب على الصلاة لوقتها ، التي هي أحب الأعمال إلى الله تعالى ، فإذا استوفى فترة التدريب و بدأ يقترب من مرحلة البلوغ و تكون الشخصية ، هنا يعاقب إذا تهاون في الصلاة حتى تنطبع أهمية الصلاة في وجدانه ، و تصبح جزء لا يتجزأ من تكوينه النفسي و تكوين شخصيته .

و لننظر إلى كلام شيخ الإسلام ابن تيميه في الفتاوى ، حيث قال : « و يجب على كل مطاع أن يأمر من يطيعه بالصلاة ، حتى الصغار الذين لم يبلغوا ، قال النبي صلى الله عليه و سلم : « مروهم بالصلاة لسبع و اضربوهم عليها لعشر ، و فرّقوا بينهم في المضاجع » ، و من كان عنده صغير مملوك أو يتيم أو ولد فلم يأمره بالصلاة ، فإنه يعاقب الكبير إذا لم يأمر الصغير ، و يعزر الكبير على ذلك تعزيراً بليغاً ، لأنه عصى الله و رسوله صلى الله عليه و سلم » .

ما بالنسبة للقدوة الصالحة ، فهذه أعظم أنواع التربية غير المباشرة ، و ذلك أنَّ الأبناء الذكور و الإناث ، يقلدون الآباء في كل شيء يفعلونه ، و يكون هذا التقليد له أكبر أثر في التربية و إعداد الشخصية .

فعلى الآباء أن يحذروا من أن يطّلع أبنائهم على عيوبهم ، فيقلدوهم فيها و ترسخ في نفوسهم لأن التعليم في الصغر كالنقش على الحجر .

٢- زرع الأدب و الأخلاق فيه و هو صغير :

ما رواه البخاري و مسلم عَن عمر بن أبي سَلَمَة قَالَ : كُنْتُ غُلَامًا فِي حِجْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ وَ كَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصفحة . فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « سم الله ، و كل بِيَمينك ، و كل مِمَّا يليك » .

إنَّ الغصون إذا قومتها اعتدلت ... و لا يلين إذا قومته الخشب
قد ينفع الأدب الأحداث في صغر ... و ليس ينفع عند الشيبة الأدب

رأى محمد بن واسع ولده يختال في مشيته ، قال : ما هذه المشية ؟ ، إنَّ أمك أمة اشتريتها بـ ٢٠٠ درهم ، و أبوك لا أكثر الله في المسلمين من أمثاله .

٣-النفقة على الولد و توفير الحياة الكريمة له و الضرب إذا لزم الأمر :

قال النبي ما رواه أحمد في مسنده و صححه الألباني : « وَ أَنْفِقْ مِنْ طَولك عَلَى أَهْلِكَ ، وَ لَا تَرْفَعْ عَصَاكَ عَنْ أَهْلِكَ ، وَ أَخِفْهُمْ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » .
و الضرب من أهم أصول التربية ، و لكن له شروط حتى لا يأتي بنتيجة عكسية .

و نلاحظ أنَّ الضرب لم يرد إلا في موضعين :

الأول : في قوله تعالى : (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ) النساء ٣٤ .
فجاء الضرب بعد العظة و بعد الهجر .

و أيضًا جاء الضرب في حديث النبي ، بعد أن يقضي الطفل ثلاث سنوات و هو يتعود على صلاة الجماعة في المسجد .

و ها هي شروط الضرب :

١- بعد استخدام التوجيه و النصح و الهجر و الزجر .
أولًا : نقوم بنصح الطفل إذا أخطأ ، ثم إذا تكرر الخطأ عن عمد يعاقب بالتعنيف و التوبيخ ، فإذا عاد مرة أخرى يعاقب بعقوبة مادية أقل من الضرب ، مثل : أن يمنع عنه المصروف أو يمنعه من أي شيء هو يحبه و يخاصمه أبوه .

وهنا دور الأم هام جدًا ، فهي مكملة للأب ، تعينه على تنفيذ العقاب ، فإذا أمر أنَّ الولد أو البنت يحرموا من شيء معين هم يحبونه ، فهي تنفذ و لا تخالف ، لأنها إن خالفت هذا الأمر فإنَّ الطفل سيعاند و يتعود على عدم طاعة الوالدين .
و أيضًا تقوم الأم بتليين قلب الطفل على أبيه ، و تخبره بأنَّه أخطأ و أنَّ عليه أن يعتذر لأبيه ، و لا يكرر هذا الأمر مرة أخرى .

فإنَّ الأم في هذه المرحلة تأثيرها على الأولاد أقوى من تأثير الأب ، فإذا لم يستجب لكل هذه المحاولات و هذا أمر شبه مستحيل ، فإذا قام الوالدين بتنفيذ ما قلنا فبإذن الله يستجيب الطفل و ينصلح حاله .

٢- لا تزيد العقوبة عن حجم الذنب .
٣- لا تضربه و أنت في شده الغضب ، حتى لا تسبب له إيذاء جسديًا تندم أنت عليه .
٤- ألا يكون الضرب مؤذيًا نفسيًا و لا جسديًا .
٥- ألا يكون أمام الناس و الأصحاب و الأقارب .
٦- أن يكون الرجل متفق مع زوجته ، حتى لا تتدخل و تحدث الخلافات .

و قد تربى الزبير على يد أمه صفية بعد موت العوام أبوه ، فكانت تضربه فيلومونها ، و يقولوا يا صفية أنت تكرهين الزبير ، فقالت لهم :
من قال إنِّي أكرهه فقد كذب
إنما أضربه حتى يلب
و يهزم القبيلة و يأتي بالسلب

و أن تنفق عليه على الموسع قدره و على المقتر قدره ، و أن تأتيه بما يشتهي لكن في حدود المعقول ، و لا يأكل طعامًا رغمًا عنه لان الشجرة إذا أعطيتها ما لا تصلح لها ماتت ، و أيضًا إذا رغب في شيء و لا تريده له ، ناقشه و حاول إقناعه ليتعود على أن يسمع الرأي الآخر .

٤- اختيار صحبة صالحة له تكبر معه :

و ذلك لأنه إن لم يجد الصحبة الصالحة ، فسيلجأ إلى أي صحبة أخرى و تجد أصحابه يفسدون ما تحاوله أنت معه ، و احذر كل الحذر على البنات فإنَّ المرأة لا تفسدها إلا المرأة ، فكن على حذر شديد ممن يصاحبن بناتك ، و اتق الله في أعراض الناس ، يحفظ الله لك عرضك .

٥- تقوية العقيدة في قلبه و التوكل على الله و تعليمه الإيمان :

عن جندب قال : كنَّا مع النبي صلى الله عليه و سلمٍ و نحن فتيان حزاورة (الغلام اذا قارب البلوغ) ، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن , ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا. « شعب الإيمان » .

و انظر أخي المسلم الذي يريد أن يربي أبنائه على صدق العقيدة و الإيمان ، كيف كان النبي يربي ابن عباس رضي الله عنهما ، و ماذا كان يقول له النبي صلى الله عليه و سلم : « يا غلام ! إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، و إذا استعنت استعن بالله ، و اعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، و لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يضروك بشيء إلا قد كتبه الله عليك ، جفت الأقلام و رفعت الصحف » رواه أحمد في المسند و الترمذي في سننه و صححه الألباني .

فتدبر هذه الكلمات التي تربي الرجال على صدق العقيدة و الإيمان الحقيقي ، و التوكل على الله و تعلم الشجاعة .

الإمام السلمي لما أراد الحج قال : استأذنت أمي في الحج , فقالت لي : توجهت إلى بيت الله فلا يكتبن عليك حافظاك شيئاً تستحي منه غدًا . « سير أعلام النبلاء للذهبي » .
و المراد بحفظ الله : قال ابن رجب - في جامع العلوم و الحكم في شرح هذا الحديث - : هو الوقوف عند أوامره بالامتثال , و عند نواهيه بالاجتناب , و عند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به ، و أذن فيه إلى ما نهى عنه .

فعلم ولدك أن يكون محافظًا على حدود الله ، و لا يخشى إلا الله .

٦- تعلميه حب أهل العلم و الدين :

فقد قال أنس بن مالك : كانوا يعلمون أولادهم محبة الشيخين ، كما يعلمونهم السورة من القران . « السنة للخلال» .

قال صالح ابن الإمام أحمد بن حنبل : كان أبي يبعث خلفي إذا جاءه رجل زاهد أو متقشف لأنظر إليه ، يحب أن أكون مثله . « سير أعلام النبلاء للذهبي ».

و هذا معناه أن تكون قدوته الحسنة أهل العلم و الدين ، و يحب لله و في الله ، و يبغض لله و في الله .

٧- تحفيظهم كتاب الله :

أعظم ما ينتفع به الوالد و الولد في الدنيا و الآخرة ، حفظ القرآن الكريم ، فإنّه يأتي شفيعًا لأصحابه يوم القيامة ، و من فاتته فرصة حفظ القران في صغره فليحفظ أولاده الذكر و الإناث ؛ و الحفظ في الصغر أسهل من الكبر .
و هذه قصة عمر بن أبي سلمة ، أصح دليل على سرعة حفظ الطفل و الحث على المسارعة في تحفيظ الأبناء:
قال عمر بن سلمة كنا بماء ممر الناس , و كان يمر بنا الركبان فنسألهم : مال الناس؟ ، فيقولون : يزعم أنَّ الله أرسله ، أوحى إليه بكذا ؛ فكنت أحفظ ذلك الكلام و كأنما يقر في صدري ، فلما أسلم قومه و أمرهم النبي بالصلاة ، قال : فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآنًا مني ! ، لما كنت أتلقى من الركبان فقدموني بين أيديهم و أنا ابن ست أو سبع سنين . رواه البخاري

و مما يدل على أنَّ هذا دأب الصحابة ، قول ابن عباس : جمعت المحكم في عهد رسول الله، فقلت له : ما المحكم ؟ ، قال : المفصل (أي من الحجرات إلى آخر القرآن) ؛ و قال أيضًا : سلوني عن التفسير فإني حفظت القرآن و أنا صغير.

وعن ابن عباس قال : من قرأ القرآن قبل أن يحتلم ، فهو ممن أوتي الحكم صبيًا . « الآداب الشرعية لابن مفلح »

و مما يستطرف في هذا الشأن ، حكاية الفرزدق حيث دخل مع أبوه على علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، و قال له: إنَّ ابني يوشك أن يكون شاعراً ، فقال له : أقرئه القرآن فهو خير له! ، فقال : ما زالت كلمته في نفسي حتى قيّد نفسه بقيد و آلى أن لا يفكه حتى يحفظ القرآن ، فما فكه حتى حفظه . « خزانة الأدب ».

و أيضًا تعليمه الأدعية النبوية و أذكار الصباح و المساء و دعاء الاستخارة ، و ما إلى ذلك مما يجعله متصلًا بسنة النبي صلى الله عليه و سلم .

المرحلة الثانية - بداية البلوغ :

بعد البلوغ تجني ثمرة ما زرعت و ما رعيت و تعبت ، فإن أحسنت الأدب في الصغر ، كان ولدك قرة عين لك ، و إن لم تحسن كان غمًا و همًا .
بعد البلوغ يمتنع الأب عن الضرب و التوبيخ ، لأنه قد يؤدي إلى تطاول الولد عليه ، أو يفعل شيء مما لا يحمد عقباه ، لكن عليه أن يدعو له و يحاوره ، و يلجأ إلى الوسائل السلمية لتقويمه .

و أن يعينه على الزواج بالمال ، إن كان الأب ميسورا .

نسال الله تعالى أن يرزقنا و إياكم الذرية الصالحة .

الدين النصيحة

إنّ الحمد لله، نحمده و نستعينه ، و نستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادي له ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمدًا عبده و رسوله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) آل عمران ١٠٢ ، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) النساء ١ ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) الأحزاب ٧٠ - ٧١ .

أما بعد ، فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله ، و أحسن الهدي هدي محمد ، و شر الأمور محدثاتها ، و كل محدثة بدعة و كل بدعة ضلالة ، و كل ضلالة في النار .

الدين النصيحة :

بعد أن أصلح الإنسان نفسه و اختار صاحبه الذي يعينه ، و سعى في إصلاح أبنائه ، عليه أن يتحرك لإصلاح الآخرين فيبدأ بالنصيحة للناس .

لكن قبل أن تبدأ ، عليك أن تعرف أخي المسلم أنك ستتعرض لأمور :

أولًا - الخلاف .
ثانيًا - الجدال .
ثالثًا - الهجر و المقاطعة .

فكيف تتصرف ؟ و ما هي الآداب التي يتبعها الصالح المصلح في هذه الأمور ؟

و هو ما نبدأ فيه : أدب الخلاف ، أدب الجدال ، أدب الهجر و أدب النصيحة .

و النصيحة أمرٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمته ، فقد قال فيما أخرجه مسلم عن تميم الداريّ : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ» ثَلَاثًا . قُلْنَا : لِمَنْ ؟ ، قَالَ : « لِلَّهِ وَ لِكِتَابِهِ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَ عَامَّتِهِمْ » .

و لكن ما هي النصيحة ؟

هي إرادة الخير للمنصوح له ؛ و قيل النصيحة : إخلاص المحبة للغير بإظهار ما فيه الخير .
لأن النصيحة في اللغة من قول العرب : نصحت العسل ، إذا أخلصته من الشمع و صفيته ؛ فكأنك تعطى أخيك عسلًا صافيًا فيه شفاء .

فمن يَرُدَ العسل ؟ إلا إذا قدمته له بطريقه سيئة أو في وعاء سيء ، إذن النصيحة عسلًا تهديه إلى أخيك و ليست حجرًا تلقيه عليه فتصيبه

قال الإمام الخطابي رحمه الله في شرح الحديث : « و أصل النصح في اللغة الخلوص ، يقال : نصحت العسل إذا خلصته من الشمع ، فمعنى النصيحة لله صحة الاعتقاد في وحدانيته و إخلاص النية في عبادته ، و النصيحة لكتابه الإيمان به و العمل بما فيه ، و النصيحة لرسوله التصديق بنبوته و بذلُ الطاعة له فيما أمر به و نهى عنه ، و النصيحة لعامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم » ، و قال الإمام أبو عمرو بن الصلاح : « النصيحة لأئمة المسلمين معاونتهم على الحقّ و طاعتهم فيه و تذكيرهم به و تنبيههم في رفق و لطف و مجانبةُ الوثوب عليهم ، و الدعاء لهم بالتوفيق » .
و النصيحة هي رسالة الأنبياء ، جاءت في سورة الأعراف ٤ مرات :
(قال نوح لقومه أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ، (قال هود أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ) .

(نَاصِحٌ أَمِينٌ) ، النصيحة تحتاج إلى الأمانة .

و قال شعيب : (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ) .

و قال صالح : (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) .

النصيحة صعبة و ثقيلة على الناس ، فلا تغضب إذا لم يستجيبوا لك ، و الله يقول لنبيه صلى الله عليه و سلم : (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) القصص ٥٠ .

و النصيحة حق من حقوق الناس عليك ليست منا منك على أخيك المسلم ، بل هو واجب عليك.
لما رواه مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ » . قِيلَ : مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ، قَالَ : « إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ وَ إِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ وَ إِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ وَ إِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ وَ إِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ » . رَوَاهُ مُسلم

ورفع الله الحرج عن أصحاب الأعذار لكنه أمرهم بالنصيحة .
فقال تعالى : (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ) التوبة ٩١ .

و النصيحة في أمور الدين و في أمور الدنيا ، و الناصح لا يخرج عن حالين : إما يأمر بمعروف و إما ينهى عن منكر .

فإذا نهى عن المنكر ، قد يعرض لِما يكره ، قال تعالى : (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) لقمان ١٧ .

فتدبر قوله تعالى : (وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ) ، يدل أنَّ من ينصح الناس و ينهاهم عن المنكر.

و قد يسمع من كان للناس ناصحا ما يؤذيه ، و انظر إلى قول ربنا جل و علا : (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) آل عمران ١٨٦.

فأمرَ الله أهل الدعوة و أهل النصح بالصبر و التقوى .

و أكثر ما يتعرض له من يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر ، ثلاثة أشياء : الجدال ، الخلاف و الهجر .

و بإذن الله تعالى سنخبركم بآداب الخلاف و الجدال و الهجر في بقية السلسلة حتى يستقيم الأمر و تتضح الصور .

و قد جاءت صفات أهل النصح في هذه الآية ، و هي قوله تعالى : (وَ لَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)) لقمان .

و تصعير الخد : التكبر على الناس ، و لا ترفع صوتك و كن هادئًا ، و لا تغتر بنفسك ؛ هذه صفات أهل النصح .

و اعلم أخي المسلم أن أي عمل لكي ينجح و تؤجر عليه يوم القيامة ، عليك أن تخلص النية لله و لا تنتظر الأجر إلا من الله ، و أنَّك إنْ دللت إنسان على خير فلك مثل أجره بإذن الله .

و انظر إلى قول رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : و عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » رواه مسلم في صحيحه .
و قد أرشدنا القرآن إلى آداب و فنون النصيحة و التعامل مع الناس ، فقال تعالى : (وَ قُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا) الإسراء ٥٣ .
و قال تعالى : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) آل عمران ١٥٩ .

فالنصيحة إنَّما تكون بالتي هي أحسن ، و تحذر من أن يدخل الشيطان بينك و بين أخيك .
و إياك و الغلظة و الفظاظة في نصحك للناس ، و إلا تركوك و انفضوا من حولك و كنت مفسدًا .

اعلم أخي الحبيب أنَّ الغلظة تكون في القلب ، و هي أنَّك لا تشعر بألم الناس الذين تقسو عليهم ، و لا تلتمس لهم الأعذار و لا ترحم ضعفهم ؛ و الفظاظة باللسان ، و ذلك أنْ تخاطب الناس بحدة و عنف فتنفرهم من الحق و تجعل النصيحة مرة لا تستساغ ، فاتق الله .
و كن صالحًا مصلحًا تفلح بإذن الله .

آداب النصيحة و فنون النصيحة :

و اعلم أخي المسلم أن آداب النصيحة هي آداب الدعوة إلى الله ، و قد قال ربنا جل و علا : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) النحل ١٢٥ ؛ فعود نفسك على أن تنصح الناس دائما بالموعظة الحسنة .

آداب النصيحة :

١- الرفق واللين في النصيحة :

لمّا أرسل الله موسى و هارون إلى فرعون ، ماذا قال لهما ؟ ، قال : (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)) طه .

و دخل رجل على عبد الملك ابن مروان ، فقال له : عندي لك نصيحة أشد من ضرب السياط ! ، فقال : و أين القول الحسن ؟! ، فأنت لست عند الله أعز من موسى و هارون ، و أنا لست عند الله أسوء من فرعون ، فإنَّ الله قال لهما : (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا) .

و الله أمرنا بالقول الحسن فقال لنا في كتابه الكريم : (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) البقرة ٨٣ .

٢- لا تنصح أخاك على الملأ :

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : كان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد و عظوه سرًا .
و يقول الشافعي :

تعهدني بنصحك في انفرادي ... و إياك و النصح في الجماعة
النصح بين الناس ... توبيخ لا أقبل استماعه

و قد قيل : إنّ نصائح المؤمنين في آذانهم ؛ و قال جعفر بن برقان : قال لي ميمون بن مهران : قل لي في وجهي ما أكره ، فإنَّ الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره ، فإن كان أخوه الذي نصح له صادقاً في حاله ، أحبه على نصحه ، فإن لم يحبه و كره ذلك منه دلّ على كذب الحال ، قال الله سبحانه وتعالى في وصف الكاذبين : (وَ لَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) الأعراف ٧٩ ؛ و قد كان بعض الصالحين يقول: أحبِ الناس إليّ من أهدى عيوبي ، و قد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول - و يأمر الإخوان بذلك - : رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوب نفسه .
و لكن قد قيل لمسعر بن كدام : تحب من يخبرك بعيوبك ، فقال: إنْ نصحني فيما بيني و بينه فنعم ، و إنْ قرعني في الملأ فلا .

و من أخلاق السلف قال : كان الرجل إذا كره من أخيه خلقاً عاتبه فيما بينه و بينه أو كاتبه في صحيفة ! ، و هذا حقًا الفرق بين النصيحة و الفضيحة فما كان في السر فهو نصيحة ، و ما كان على العلانية فهو فضيحة ، و قلما تصح فيه النية لوجه الله تعالى ، لأن فيه شناعة ، و كذلك الفرق بين العتاب والتوبيخ ، فالعتاب ما كان في خلوة ، و التوبيخ لا يكون إلاّ في جماعة ، و لذلك يعاتب الله عزّ وجلّ رجلاً من المؤمنين يوم القيامة تحت كنفه ، و يسبل عليه ستره فيوقفه على ذنوبه سرًّا ، و منهم من يدفع كتاب عمله مختوماً إلى الملائكة الذين يحفرون به إلى الجنة ، فإذا قاربوا دخول الجنة ، دفعوا إليهم الكتب مختومة فيقرؤونها ، و أما أهل التوبيخ فينادون على رؤوس الأشهاد ، فلا يخفى على أهل الموقف فضيحتهم ، فيزداد ذلك في عذابهم .

و انظر إلى أدب السلف في النصيحة ، روى الذهبي في سير أعلام النبلاء عن عبد الله بن وهب قال : (سمعت مالكاً سئل عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء ، فقال : ليس ذلك على الناس . قال فتركه حتى خف الناس ، فقلت له : عندنا في ذلك سنّة ، فقال : و ما هي ؟ ، قلت : حدثنا الليث بن سعد و ساق سنده إلى المستورد بن شداد القرشي ، قال: « رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يدلك بخنصره ما بين أصابع رجليه » ، فقال: إن هذا الحديث حسن ، و ما سمعت به قط إلا الساعة . ثم سمعته بعد ذلك يسأل فيأمر بتخليل الأصابع) .

فانظر أخي المسلم إلى أدب هذا الإمام الجليل ابن وهب ، و كيف قال : فتركته حتى خف الناس ، و انظر إلى أدب إمام دار الهجرة مالك رحمه الله كيف قبل النصيحة و لم يتكبر عليها ! ، رحمهم الله .

٣- اختيار الوقت للنصيحة و عدم الإلحاح في النصيحة :

لأن الإنسان متقلب بطبيعته ، فربما تختار وقتًا للنصيحة لا يكون ملائمًا لأخيك ، فيعاند و يكابر ، و تأتي النصيحة بنتيجة عكسية .

و هذا من هدي النبي صلى الله عليه و سلم ؛ حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ ، عَنْ شَقِيقٍ ، قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ بَابِ عَبْدِ اللهِ نَنْتَظِرُهُ ، فَمَرَّ بِنَا يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ النَّخَعِيُّ ، فَقُلْنَا : أَعْلِمْهُ بِمَكَانِنَا ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ عَلَيْنَا عَبْدُ اللهِ ، فَقَالَ: إِنِّي أُخْبَرُ بِمَكَانِكُمْ ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ إِلَّا كَرَاهِيَةُ أَنْ أُمِلَّكُمْ ، « إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ، مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا » متفق عليه البخاري و مسلم .

و مثال هذا : أن تدخل على أخيك المسلم فتجده في خلاف مع زوجته أو أبنائه أو جيرانه أو أي إنسان ، و قد سيطر عليه الغضب ، هنا لا تنصحه في الأمر الذي عليه الخلاف ، لأنه لن يسمع بل اجعل نصيحتك في كيف يذهب عنه الغضب ، فإذا ذهب عنه الغضب فانصحه بما شئت ، فإنَّه يسمع بإذن الله ، و لا تلح على إنسان في أمر ، لكن أنصحه على فترات متباعدة و ذكرّه لعله يذكرّ .

٤- أن تفعل ما تنصح به الناس :

و هذا من أهم آداب النصيحة ، أنْ تكن أنت فاعلًا الخير الذي تنصح به الناس .
و إلا كنت من أهل قوله تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) البقرة ٤٤ .
و قال تعالى : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) الصف ٣ .

أو كنت كما قال القائل :

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
لا تنه عن خلق و تأتي بمثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما وعظت و يقتدي ... بالرأي منك و ينفع التعليم
تصف الدواء وأنت أولى بالدوا ... و تعالج المرضى و أنت سقيم
و كذا تلقح بالرشاد عقولنا ... أبدا و أنت من الرشاد عقيم

و النصيحة في أمور الدنيا من أهم حقوق المسلم على المسلم ، و لذلك فقد رفع الله حكم الغيبة في النصيحة ؛ ما رواه مسلم في صحيحه عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها لما طلقت من أَبَا عَمْرِو بْنَ حَفْصٍ ، قالت : فَلَمَّا حَلَلْتُ ذَكَرْتُ لَهُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَ أَبَا جَهْمٍ خَطَبَانِي ، فَقَالَ : « أَمَّا أَبُو الْجَهْمِ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ وَ أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ » . فهذه نصيحة و ليست غيبة .

و أيضًا ما رواه مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَقَالَ : إِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ ، قَالَ : « فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّ فِي أَعْيُنِ الْأَنْصَارِ شَيْئًا » . رَوَاهُ مُسْلِمٌ

و من أعجب ما جاء في السنة في النصيحة ، عَن جرير بن عبد الله قَالَ : « بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَ النُّصْحِ لكل مُسلم » . مُتَّفق عَلَيْهِ

لذلك فان غلام له اشترى فرسًا بـ٣٠٠ ، فذهب إلى صاحبه ، و قال : إنَّ فرسك خيرًا من ٣٠٠ ، و ما زال يزيده حتى وصل إلى ٨٠٠ ، فلما سُئل رضي لله عنه عن هذا الفعل العجيب ، قال : بَايَعْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ النُّصْحِ لكل مُسلم .

رضي الله عنه هذا الصحابي الجليل الذي أدى البيعة لرسول الله صلى الله عليه سلم ، و إنْ كان سيخسر المال فإنَّ أصحاب النبي باعوا الدنيا و اشتروا الآخرة .

و كن ناصحًا للمسلمين ... بإرشادهم إلى الحق عند خفاءه
و مرهم بمعروف الشريعة ... و انههم عن السوء و ازجر ذا الخنا عن خنائه
وعظهم بآيات الإله و حكمه ... لعلك تبرئ داءهم بدوائه
فإنْ يهدى مولانا بوعظك واحدًا ... تنل منه يوم الحشر خير عطاءة
و إلا فقد أديت ما كان واجبًا ... عليك و ما ملكت أمر اهتداءه

٥- و التدرج في النصيحة و خاصة إذا كنت تنهى عن منكر :

و هذا الأدب هو من أهم فنون و آداب النصيحة ، و هو مراعاة ضعف النفس البشرية خاصة إذا تعلقت بشيء و تعودت عليه فتره كبيرة من الزمن ، و قد تعلمنا التدرج في الإنكار من القرآن ، فلم تنزل آية تحريم الخمر دفعة واحدة ، لأن ذلك سيستحيل على أهل مكة ترك الخمر لكنها تدرجت في النهي إلى أن وصلت إلى التحريم و القرآن الكريم ذكر ذلك في مراحل ، لكن الخمر الآن قد حرمت تحريمًا قاطعًا ؛ فماذا نفعل إذا أردنا أن ننصح من يشرب الخمر ؟

نقول أن من فنون النصيحة و الإنكار على الغير ثلاثة أمور نذكرها :

١- إظهار مساوئ الأمر الذي تريد أن تنهى عنه ؛ مثل أن تقول : إنَّ الخمر تذهب العقل و تجعل الإنسان يؤذي نفسه و أولاده و هو لا يشعر ، و تسبب الأمراض المستعصية و تجلب الفقر و الهم لصاحبها .

٢- ثم التخويف من عقاب الله تعالى يوم القيامة .
و انظر معي إلى هذا الحديث الذي يحذر شارب الخمر ، عن جَابِرٍ ، أَنَّ رَجُلًا قَدِمَ مِنْ جَيْشَانَ ، وَ جَيْشَانُ مِنَ الْيَمَنِ ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عَنْ شَرَابٍ يَشْرَبُونَهُ بِأَرْضِهِمْ مِنَ الذُّرَةِ ، يُقَالُ لَهُ : الْمِزْرُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « أَوَ مُسْكِرٌ هُوَ ؟ » ، قَالَ: نَعَمْ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، إِنَّ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ » ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَ مَا طِينَةُ الْخَبَالِ ؟ ، قَالَ : « عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ » أَوْ « عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ » البخاري .

٣- ثم إظهار ثواب و فضل من ترك شرب الخمر لله ، و أنَّ الله يبدله بخمر الدنيا خمرًا في الجنة لا تؤذي و لا تذهب العقل ، و أنَّ الله يرضى عنه و يغفر له ما مضى .

هذا هو المقصود بالتدرج في النصيحة ، و الله أعلم .

اللهم أرنا الحق حقًا و ارزقنا إتباعه و أرنا الباطل باطلًا و ارزقنا اجتنابه .

أدب الخلاف في الإسلام

إنّ الحمد لله، نحمده و نستعينه ، و نستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادي له ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمدًا عبده و رسوله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) آل عمران ١٠٢ ، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) النساء ١ ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) الأحزاب ٧٠ - ٧١ .

أما بعد ، فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله ، و أحسن الهدي هدي محمد ، و شر الأمور محدثاتها ، و كل محدثة بدعة و كل بدعة ضلالة ، و كل ضلالة في النار .

(وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) هود ١١٨ . وقال تعالى : (وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) ١٩يونس .

و الخلاف سنة الله في كونه ، و الخلاف أمر مشروع جائز الوقوع ، قال تعالى : (وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) الشورى ١٠ .

و قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا) النساء ٥٩ .
و الخلاف قد يكون بين أهل العلم أو بين الزوجين أو بين الوالد و أولاده ، فإن راعينا أدب الخلاف لن ينتج عنه أي ضرر بإذن الله تعالى ، و الخلاف كان موجودًا أيام النبي في فهم النصوص ، و الخلاف حول الأمور الشرعية بدأ بعد وفاة النبي صلى الله عليه و سلم ، لأن في حياة النبي كان أي خلاف يرد إليه و ينزل الوحي بالتشريع .

بعد وفاته صلى الله عليه و سلم بدأ الصحابة يتفرقون في البلدان لينشروا العلم ، فكان كل منهم يفتي بما علمه الله .

و معرفة أسباب الاختلاف من أهم العلوم التي لا يستغني عنها طالب العلم و العالم ؛ قال قتادة رحمه الله : « من لم يعرف الاختلاف لم يشم الفقه بأنفه » .
و قالوا أيضًا لا ينبغي لأحد أن يفتي الناس حتى يكون عالما باختلاف الناس ، فإنّه إن لم يكن كذلك رد من العلم ما هو أوثق من الذي في يديه .

أسباب الخلاف بين الصحابة :

١- الاختلاف في فهم كلام رسول الله صلى الله عليه و سلم :
قال النبي صلى الله عليه و سلم : « لا يصلينَّ أحد العصر إلا في بني قريظة » , فبعضهم فهم منه المراد الاستعجال ، فصلى العصر لما دخل وقته , و بعضهم أخذ بالظاهر فلم يصل إلا في بني قريظة , و لم يعنف النبي صلى الله عليه و سلم

أحدًا منهم أو عاتبه ، ففي ذلك دلالة هامة على أصل من الأصول الشرعية الكبرى و هو تقرير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع ، و اعتبار كل من المتخالفين معذورًا و مثابًا ، كما أنَّ فيه تقريرًا لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية ، و حاصل ما وقع أن بعض الصحابة حملوا النهي على حقيقته ، و لم يبالوا بخروج الوقت وقت الصلاة توجيهًا لهذا النهي الخاص على النهي العام عن تأخير الصلاة عن وقتها .

و قد علق الحافظ ابن حجر على هذه القصة فقال : ثم الاستدلال بهذه القصة على أن كل مجتهد مصيب على الإطلاق ليس بواضح ، و إنما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه و اجتهد , فيستفاد منه عدم تأثيمه ، و حاصل ما وقع في القصة أن بعض الصحابة حملوا النص على حقيقته ، و لم يبالوا بخروج الوقت ترجيحًا للنهي الثاني على النهي الأول ، و هو ترك تأخير الصلاة عن وقتها ، و استدلوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق ، و البعض الآخر حملوا النهي على غير الحقيقة ، أنَّه كناية على الحث و الاستعجال و الإسراع إلى بني قريظة ، و قد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد ؛ لأنه صلى الله عليه و سلم لم يعنف أحدًا من الطائفتين ، فلو كان هناك إثم لعنف من أثم .

و أيضًا ما روى عن ابن عمر أنَّ الميت يعذب ببكاء أهله ، فقالت عائشة : أنَّ ابن عمر أخذ الحديث على غير وجهه ، قالت مرَّ رسول الله صلى الله عليه و سلم على يهودية يبكي عليها أهلها ، فقال : إنِّهم ليبكون عليها ، و إنَّها تعذب في قبرها ؛ فظنَّ ابن عمر أنَّ العذاب بسبب البكاء و أنَّ الحكم عام لكل الناس .

٢- الاختلاف في حكم الفعل بين من يأخذ بظاهر الفعل و من يأوّل الفعل :
و مثال ذلك : أنَّ الصحابة رأوا النبي صلى الله عليه و سلم يرمل في الطواف ، فذهب جمهور الصحابة إلى أنَّ الرمل سنة ، و قال ابن عباس : إنَّما رمل لعارض - و هو قول المشركين حطمتهم حمى يثرب - فأراد النبي صلى الله عليه و سلم أنْ يظهر له القوة .

٣-الاختلاف في علة الحكم :
مثل : القيام للجنازة و هي تمر ، اختلفوا في سبب القيام ما بين تعظيم الموت أو تعظيم الملائكة ، و هناك من علل الحكم بأنَّ النبي صلى الله عليه و سلم مر بجنازة يهودي ، فقام لها كراهة أن تعلو فوق رأسه فيكون الحكم خاص بغير المسلمين فقط .

٤- أن يسمع الصحابي حكما في قضية و لم يسمعه صحابي آخر ، فيجتهد الذي لم يسمع برأيه :
و مثال ذلك : أنَّ عمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان يفتي في دية الأصابع ، بأنَّ الدية تحدد حسب أهمية الإصبع ، فلما علم ابن عباس قال : سمعت النبي صلى الله عليه و سلم يقول : دية الأصابع لكل واحدة عشر من الإبل .

و أيضًا ثبت في صحيح البخاري ، حينما سافر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام ، و في أثناء الطريق ذُكر له أن فيها وباء و هو الطاعون ، فوقف و جعل يستشير الصحابة رضي الله عنهم ، فاستشار المهاجرين و الأنصار و اختلفوا في ذلك على رأيين ؛ و كان الأرجح القول بالرجوع ، و في أثناء هذه المداولة و المشاورة جاء عبدالرحمن بن عوف ، و كان غائباً في حاجة له ، فقال: إنَّ عندي من ذلك عِلماً ، سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلّم يقول : « إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه ، و إن وقع و أنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه » ، فكان هذا الحكم خافياً على كبار الصحابة من المهاجرين و الأنصار ، حتى جاء عبدالرحمن فأخبرهم بهذا الحديث .

وأيضًا مثال آخر : كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه و عبدالله بن عباس رضي الله عنهما يريان أن الحامل إذا مات عنها زوجها تعتدّ بأطول الأجلين ، من أربعة أشهر وعشر أو وضع الحمل ، فإذا وضعت الحمل قبل أربعة أشهر و عشر لم تنقض العدة عندهما و بقيت حتى تنقضي أربعة أشهر و عشر ، و إذا انقضت أربعة أشهر و عشر من قبل أن تضع الحمل بقيت في عدتها حتى تضع الحمل ، لأن الله تعالى يقول : (وَ أُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) الطلاق ٤ ؛ و يقول : (وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْوَجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْرًا) البقرة ٢٣٤ .

و بين الآيتين عموم و خصوص وجهي ، و طريق الجمع بين ما بينهما عموم و خصوص وجهي ، أن يؤخذ بالصورة التي تجمعهما ، و لا طريق إلى ذلك إلا ما سلكه علي و ابن عباس رضي الله عنهما ، و لكن السُّنَّة فوق ذلك . فقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه و سلّم في حديث سبيعة الأسلمية أنها نفست بعد موت زوجها بليال ، فأذن لها رسول الله أن تتزوج » ، و معنى ذلك أننا نأخذ بآية سورة الطلاق التي تسمَّى سورة النساء الصغرى ، و هي عموم قوله تعالى : (وَ أُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) ، و أنا أعلم علم اليقين أن هذا الحديث لو بلغ عليًّا و ابن عباس لأخذا به قطعاً ، و لم يذهبا إلى رأيهما .

٥- عدم الوثوق ممن نقل الحديث أو الدليل :

فاطمة بنت قيس رضي الله عنها طلّقها زوجها آخر ثلاث تطليقات ، فأرسل إليها وكيله بشعير نفقة لها مدة العدة ، و لكنها سخطت الشعير و أبت أن تأخذه ، فارتفعا إلى النبي صلى الله عليه و سلّم فأخبرها النبي : أنه لا نفقة لها و لا سكنى ، و ذلك لأنه أبانها ، و المبانة ليس لها نفقة و لا سكنى على زوجها إلا أن تكون حاملاً ؛ لقوله تعالى : (وَ أُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) .

عمر رضي الله عنه ـ ناهيك عنه فضلاً و علماً ـ خفيت عليه هذه السُّنَّة ، فرأى أن لها النفقة و السكنى ، و ردَّ حديث فاطمة باحتمال أنها قد نسيت ، فقال : أنترك قول ربنا لقول امرأة لا ندري أذكرت أم نسيت ؟ ، و هذا معناه أنَّ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لم يطمئن إلى هذا الدليل ، و هذا كما يقع لعمر و من دونه من الصحابة و من دونهم من التابعين ، يقع أيضاً لمَن بعدهم من أتباع التابعين ، و هكذا إلى يومنا هذا بل إلى يوم القيامة ، أن يكون الإنسان غير واثق من صحة الدليل . و كم رأينا من أقوال لأهل العلم فيها أحاديث يرى بعض أهل العلم أنها صحيحة فيأخذون بها ، و يراها الآخرون ضعيفة ، فلا يأخذون بها ، نظراً لعدم الوثوق بنقلها عن رسول الله صلى الله عليه و سلّم .

٦- نسيان الحديث :

و جلَّ من لا ينسى ، كم من إنسان ينسى حديثًا ، بل قد ينسى آية ، رسول الله صلى الله عليه و سلّم « صلَّى ذات يوم في أصحابه فأسقط آية نسياناً » ، و كان معه أبي بن كعب رضي الله عنه ، فلمَّا انصرف من صلاته قال : « هلا كنت ذكّرتنيها » ، و هو الذي ينزل عليه الوحي ، و قد قال له ربه : (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ مَا يَخْفَى) الأعلى ٦-٧ .

و من هذا ـ أي مما يكون الحديث قد بلغ الإنسان و لكنه نسيه ـ قصة عمر بن الخطاب مع عمار بن ياسر رضي الله عنهما حينما أرسلهما رسول الله صلى الله عليه و سلّم في حاجة ، فأجنبا جميعًا عمار و عمر ؛ أما عمار فاجتهد و رأى أن طهارة التراب كطهارة الماء ، فتمرغ في الصعيد كما تمرغ الدابة ، لأجل أن يشمل بدنه التراب ، كما كان يجب أن يشمله الماء و صلَّى ، أما عمر رضي الله عنه فلم يصل ، ثم أتيا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلّم فأرشدهما إلى الصواب ، و قال لعمار : « إنَّما كان يكفيك أن تقول بيديك هكذا » - و ضرب بيديه الأرض مرة واحدة ، ثم مسح الشمال على اليمين ، و ظاهر كفيه ووجهه - . و كان عمار رضي الله عنه يحدث بهذا الحديث في خلافة عمر ، و فيما قبل ذلك ، و لكن عمر دعاه ذات يوم وقال له: ما هذا الحديث الذي تحدث به؟ فأخبره وقال: أما تذكر حينما بعثنا

رسول الله في حاجة فأجنبنا ، فأما أنت فلم تصل ، و أما أنا فتمرغت في الصعيد ، فقال النبي صلى الله عليه و سلّم : « إنما كان يكفيك أن تقول كذا و كذا » . و لكن عمر لم يذكر ذلك و قال : اتق الله يا عمار ، فقال له عمار : إن شئت بما جعل الله عليَّ من طاعتك أن لا أحدِّث به فعلت ، فقال له عمر : نوليك ما توليت - يعني فحدِّث به الناس - فعمر نسي أن يكون النبي صلى الله عليه و سلّم جعل التيمم في حال الجنابة كما هو في حال الحدث الأصغر ، و قد تابع عمر على ذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، و حصل بينه و بين أبي موسى رضي الله عنهما مناظرة في هذا الأمر ، فأورد عليه قول عمار لعمر ، فقال ابن مسعود : ألم تر أن عمر لم يقنع بقول عمار ، فقال أبو موسى : دعنا من قول عمار ، ما تقول في هذه الآية ؟ - يعني آية المائدة - ، فلم يقل ابن مسعود شيئاً ، و لكن لا شك أن الصواب مع الجماعة الذين يقولون أن الجُنُب يتيمم ، كما أن المحدث حدثاً أصغر يتيمم ، و المقصود أنَّ الإنسان قد ينسى فيخفى عليه الحكم الشرعي ، فيقول قولاً يكون به معذوراً لكن مَن علِم الدليل فليس بمعذور . هذان سببان .

أضرار الخلاف :

١- الخلاف يغير القلوب و يقتل الأخوة و المحبة :

كما قال النبي صلى الله عليه و سلم ، فيما رواه مسلم عن وَ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ وَ يَقُولُ : « اسْتَوُوا وَ لَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ ، ليليني مِنْكُم أولوا الْأَحْلَامِ وَ النُّهَى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » . قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ : فَأَنْتُمُ الْيَوْمَ أَشَدُّ اخْتِلَافا . رَوَاهُ مُسلم

و في رواية أخرى ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَ النُّهَى ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثَلَاثًا ، وَ إِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الأَسْوَاقِ » .

(هيشات الأسواق) : أي اختلاطها و المنازعة و الخصومات و ارتفاع الأصوات و اللغط و الفتن التي فيها .

٢- و الخلاف هو سبب الهلاك كما قال النبي صلى الله عليه و سلم :

وَ عَن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَجُلًا قَرَأَ وَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَقْرَأُ خِلَافَهَا ، فَجِئْتُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَعَرَفْتُ فِي وَجهه الْكَرَاهِيَة فَقَالَ : « كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ فَلَا تَخْتَلِفُوا ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قبلكُمْ اخْتلفُوا فهلكوا » . رَوَاهُ الْبُخَارِيّ

الخلاف وقع بين اليهود النصارى ، فأخبرنا الله بأنَّه سبحانه من يحسم هذا الخلاف بينهم يوم القيامة ، فقال : (وَ قَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَ قَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) .

٣- و كان عمر رضي الله عنه ينهى عن الخلاف :

اختلف أُبّي بن كعب و ابن مسعود في الصلاة في الثوب الواحد ، إذ قال أُبّي : الصلاة في الثوب الواحد جميل و حسن ، و قال ابن مسعود : إنّما كان ذلك و الثياب قليلة ، فخرج عمر مغضبًا ، فقال : اختلف رجلان من أصحاب رسول الله ممن ينظر إليه و يؤخذ عنه ، وقد صدق أُبّي و لم يال ابن مسعود ، و لكني لا أسمع أحدًا يختلف فيه بعد مقامي هذا ، و إلا فعلت به كذا و كذا .

أقوال العلماء في آداب الخلاف :

و أهمها أن نفرق بين الخطأ و الإثم ، فربما يجتهد العالم و يخطأ ، فلا نتهمه بالبدعة والضلال طالما أنَّه أخذ بضوابط الاجتهاد .

و علينا أن نفرق بين الخطأ و الإثم ، قال شيخ الإسلام في الفتاوى : « و أهل الضلال يجعلون الخطأ و الإثم متلازمين ، و الذين يقولون بأن المجتهد المخطئ آثم ، فهم أتباع بشر المريسي و كثير من المعتزلة البغداديين و القدرية ؛ لأن الخطأ و الإثم عندهم متلازمة » .

و يقول أيضاً : « و من جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور ، مذموماً معيباً ممقوتاً ، فهو مخطأ ضال مبتدع » .

و لذلك فليحذر الذين يجرحون كبار العلماء و يتهمونهم بالبدعة و الضلال ، فقد قالوا : « لحوم العلماء مسمومة ، و عادة الله في هتك أعراض منتقصيهم معلومة ، و من وقع فيهم بالثلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب » .

و كان إبراهيم بن ادهم يقول : « كنَّا إذا رأينا الشاب يتكلم مع المشايخ في المسجد ، أيسنا من كل خير عنده » .
أي : يناظرهم و يجادلهم ، فإذا كان اليهود والنصارى و البوذيون يجلون و يقدرون علمائهم إلى درجة التقديس .

و قال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء رحمه الله تعالى : « و لو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفوراً له ، قمنا عليه و بدعناه و هجرناه ، لما سلم معنا لا ابن نصر ، و لا ابن منده، و لا من هو أكبر منهما ، والله هو هادي الخلق إلى الحق و هو أرحم الراحمين ، فنعوذ بالله من الفضاضة » .
و الله سبحانه و تعالى لم يعطِ أي إنسان عصمة من الخطأ ، « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » . أخرجه الترمذي و ابن ماجه و حسنه الألباني.

و قال عبد الرحمن بن مهدي : « من يبرئ نفسه من الخطأ فهو مجنون » . الآداب الشرعية.

و قال الإمام مالك : « و من ذا الذي لا يخطئ » . الآداب الشرعية.

و أحيانًا ينخدع الناس في بعض أهل الدين من رواد المساجد ، فيظنونه عالمًا و يستفتونه ، و نريد أن نفرق بين العالم والعابد أو بين الواعظ و العابد .

و قد فرق العلماء بين العالم و العابد ، يقول ربيعة بن عبد الرحمن: « إن من إخواننا من نرجو بركة دعائه ، و لو شهد عندنا بشهادة ما قبلناها » . الآداب الشرعية - ابن فلح.

و قال أبو الزناد : « أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون ما يؤخذ عنهم شيء من الحديث ، يقال: ليسوا من أهله » . صحيح مسلم بشرح النووي.

قال عبد الله بن المبارك : قلت لسفيان الثوري : « إن عبَّاد بن كثير من تعرف حاله ، و إذا حدَّث جاء بأمر عظيم ، فترى أقول للناس : لا تأخذوا عنه ؟ ، قال سفيان : بلى. قال عبد الله : فكنت ، إذا كنت في مجلس ذُكِر فيه عباد ، أثنيت عليه في دينه ، و أقول: لا تأخذوا عنه » . صحيح مسلم بشرح النووي.

أهم قواعد الخلاف :

و ينقسم الخلاف إلى :
القسم الأول : ما لا يسعه الخلاف ، و هو ما أجمعت عليه الأمة ، و ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، و ما كان خاص بأمور العقيدة و الغيب ، و تحريم الزنا و الخمر و الصلوات الخمس و الحج و الصيام و الزكاة ؛ و من اختلف حول هذه الأشياء فقد كفر .
القسم الثاني : ما كان فيه اجتهاد هذا يسعه الخلاف ، مثل : الجهر و الإسرار بالبسملة في الفاتحة و القصر و إتمام الصلاة في السفر ، و قراءة المأموم الفاتحة خلف الإمام في الصلاة من عدمها ؛ كل هذه الأمور و ما يشبهها يجوز الخلاف فيها ، و من كان عنده قدره على النظر في كتب أهل العلم و تحرير المسائل الفقهية و الترجيح بينها .

و قد يخطأ المجتهد ولكن بشرط انه اجتهد و أخذ بالقواعد العلمية ، فهذا يعود إلى قوله تعالى : (رَبَّنا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) البقرة ٢٨٦ .

و عَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَقُولُ : « إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَ إِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ » . متفق عليه

أولًا - الآداب التي تراعى عند الخلاف :

١- أن يكن لنا أصلًا نعود إليه :
و هناك ثلاثة أصول لا يدخلها الخلل ، و يرجع إليها عند كل خلاف :

١/ الكتاب و السنة و الإجماع :

والله يقول : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) . و لا يجوز عند الخلاف الفتوى بقول أحد العلماء طالما أنَّ فتواه ليست موثقة بدليل ، فلا عصمة لكلام أحد من البشر إلا رسول الله صلى الله عليه و سلم .

وأيضًا من يأخذ برخص العلماء ، و المقصود برخص العلماء : الأمور التي أخطأ فيها العلماء ، قال سليمان التيمي : « إن أخذت برخصة كل عالم ، اجتمع فيك الشر كله » .
و الخلاف و التعصب من أجل المذاهب من الأمور المذمومة ، و قد وصل التعصب للمذاهب في العصور الماضية إلى أنَّهم كانوا يحرمون أن تتزوج الحنفية من شافعي ، و أجاز بعض علماء الحنفية أن يتزوج الحنفي من شافعية ، فلما سألوه عن السبب قال : أنزلتها منزلة أهل الكتاب .

قال تعالى : (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) الأعراف ٢ .
و قوله تعالى : (وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَ لَا يَهْتَدُونَ) البقرة ١٧٠ .

قد جاء عدي بن حاتم إلى النبي و كان قد دان بالنصرانية قبل الإسلام ، فلما سمع النبي صلى الله عليه و سلم يقرا هذه الآية : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) التوبة ٣١ ، قال : يا رسول الله إنهم لم يعبدوهم ، فقال : بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال و أحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم . الترمذي و غيره و حسنه .

و مدح الله من يتبع الحق ، فقال تعالى : (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) الزمر ١٨ .

و ردَّ الله كل الاختلافات إلى الكتاب و السنة ، و لم يردَّ الخلاف إلى أي مصدر آخر ، و الإجماع يدخل تحت السنة ، لقول النبي صلى الله عليه و سلم : « لا تجتمع أمتي على ضلالة » .

٢- التثبت من قول المخالف :

و ذلك لقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) الحجرات ٦ .

و يكون التثبت بأن تسمع الرأي من صاحبه ، و تسمع حجته أولًا قبل الحكم عليه و الاختلاف معه .

٣- تحديد الموضوع :

و الخلاف لا يكون خلافًا عامًا لمجرد الخلاف ، ولكن ما هو الموضوع المختلف عليه ؟ ، و إلا يكون الخلاف حول التعريفات و المصطلحات .
مثل : المنهج السلفي ، السنة ، البدعة ، المكفرة و أساليب الدعوة ؛ و ما إلى ذلك من تعريفات قد يحدث حولها الخلاف ، و مثال ذلك : أن يختلف الناس حول أسلوب الدعوة .

٤ ــتحديد أهمية موضوع الخلاف :

هل الموضوع المختلف عليه له أهمية أم يحتمل أكثر من رأي و له أكثر من وجه ، و مثال ذلك : الجهر بالبسملة في الفاتحة ؛ قال شيخ الإسلام رحمه الله : « إنها من الأمور التي لا تحتمل الخلاف و الخصومة بين المسلمين وان كان الحق في الإسرار » .

٥-هدف الخلاف :

أن يكون الهدف من الاختلاف إظهار الحق ، و ليس الانتصار للنفس .
كان الشافعي يقول : « ما ناظرت أحدًا إلا و تمنيت أن يكون الحق معه » .

٦- أن يتهم الإنسان رأيه حتى يكن عنده استعداد أن يسمع :

و إذا لم يحدث اتفاق فلا تشهر بأخيك ، و تتهمه بالبدعة و الضلال و الفسق .
فكم من خلاف حدث بين الصحابة و بين العلماء ، و لم نسمع عن عالمًا اتهم أخيه بالبدعة أو الفسق .

٧- عدم التكلم فيما يجهل :

(وَ لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) الإسراء ١٠ .
لو سكت من لا يعلم لسقط الخلاف ، قال تعالى : (وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) الشورى ١٠ .

و قال تعالى : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) النساء ٥٩ .

٨ - الاعتراف بالحق و عدم وجود أي ضيق :
قال تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) النساء ٦٥ .

و كانت هذه الآية هي منهج السلف في الخلاف ، و كان هدفهم البحث عن الحق .

حكى الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب في ترجمة (عبيد الله بن الحسن العنبري) المتوفى سنة ١٦٨ , أحد سادات أهل البصرة و فقهائها و علمائها و كان قاضيها : قال عبدالرحمن بن مهدي تلميذه : كنا في جنازة , فسألته عن مسألة فغلط فيها , فقلت له : - أصلحك الله - القول فيها كذا و كذا , فأطرق ساعة ثم قال : إذاً أرجع و أنا صاغر , لأن أكون ذنبًا في الحق أحب إليّ من أكون رأسًا في الباطل . رحمه الله تعالى !

و أيضًا ما رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء عن عبد الله بن وهب قال : « سمعت مالكاً سئل عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء ، فقال : ليس ذلك على الناس ؛ قال فتركه حتى خف الناس ، فقلت له : عندنا في ذلك سنّة ، فقال : و ما هي ؟ ، قلت: حدثنا الليث بن سعد و ساق سنده إلى المستورد بن شداد القرشي قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يدلك بخنصره ما بين أصابع رجليه « ، فقال: إنَّ هذا الحديث حسن ، وما سمعت به قط إلا الساعة . ثم سمعته بعد ذلك يُسأل ، فيأمر بتخليل الأصابع .

وكانوا كما قال تعالى : (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) .
كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « لا ترث الزوجة من دية زوجها شيئاً » ، حتى قال الضحاك بن سفيان رضي الله عنه : « كتب إليّ رسول الله صلى الله عليه و سلم أن أورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها » ، فرجع عمر .

و من الأمور التي ينبغي تجنبها هي مناقشة الجاهل و المعاند ، و الذي تعلم أنَّك لو حاججته لم يسلم لك ، بل يزيد عنادًا ، و هذا الصنف من الناس ينبغي تجنبه .

نقل الحافظ الذهبي في (سير أعلام النبلاء) في ترجمة الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه , عن أبي موسى يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري أحد أصحاب الإمام الشافعي , أنه قال : ما رأيت أعقل من الشافعي , ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا , و لقيني فأخذ بيدي , ثم قال : يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانا و إن لم نتفق في مسألة ؟!

قال الذهبي : هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام و فقه نفسه . فما زال النظراء يختلفون !!

و قد تختلف وجهات النظر حول طرق الدعوة إلى الله ، فكل يرى أنَّه على حق و لا يجب أن يكون هذا سببًا للخلاف و الشقاق .

و انظر معي إلى أخلاق السلف في هذه المسألة :
و جاء في (سير أعلام النبلاء) في ترجمة الإمام مالك : إنَّ عبدالله العمري العابد ، كتب إلى الإمام مالك يحضه على الانفراد و العمل - أي التزهُّد- ، فكتب إليه مالك : إنَّ الله قسَّم الأعمال كما قسَّم الأرزاق , فربَّ رجل فتح له في الصلاة

و لم يفتح له في الصوم , و آخر فتح له في الصدقة و لم يفتح له في الصوم , و آخر فتح له في الجهاد . فنشر العلم من أفضل أعمال البر , و قد رضيت بما فتح لي فيه ، و ما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه , و أرجو أن يكون كلانا على خير و بر .

فلا يكن مقصدك من مناقشة أخيك هو ارتفاع قدرك و لا تخاطبه بلغة التحدي بل استخدام القول الحسن و الكلم الطيب .

- قبول الحق ممن جاء به مع الرضا و التسليم لا فرق عنده بين أن يظهر الحق على يده أو على يد غيره حتى ولو كان مخالفًا .
« ما ناظرت أحدًا إلا أحببت أن يظهر الله الحق على يده دون حرص مني على مغالبته » .

و قد استحسن الإمام أحمد رحمه الله ما حكي له عن حاتم الأصم ، و قد قيل له : « أنت رجل أعجمي لا تفصح و ما ناظرك أحد إلا غلبته ، فبأي شيء تغلب خصمك ؟ ، قال: بثلاث : أفرح إذا أصاب ، و أحزن إذا أخطأ ، و أصون لساني أن أقول فيه ما يسوؤه » ؛ قال أحمد: ما أعقله من رجل .

« هذا و أنا في سعة صدر لمن يخالفني فإنه و إن تعدى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية ، فأنا لا أتعدى حدود الله فيه بل أضبط ما أقوله و أنقله و أزنه بميزان العدل ، وأجعله مؤتما بالكتاب الذي أنزله الله و جعله هدى للناس حاكمًا فيما اختلفوا فيه ، ذلك أنك ما جزيت من عصى الله فيك بأكثر من أن تطيع الله فيه » . الفتاوى الكبرى

- إصلاح السريرة ، و استحضار نية الوفاء بعهد الله تعالى في تبيين الحق وعدم كتمانه ، و إحياء العمل به كما ينبغي له :
و هذا من مقاصد الإسلام ، و عليه مدار قبول الأعمال ، و بدونه تتحول الطاعات و القربات إلى موبقات.
قال الخطيب : « و يخلص النية في جداله بأن يبتغي وجه الله تعالى ، و ليكن قصده في نظره إيضاح الحق و تثبيته دون المغالبة للخصم » .

٩- الإنصات و حسن الاستماع :
قال الشافعي: « و لا يمتنع من الاستماع ممن خالفه ، لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة ، و يزداد تثبيتًا فيما اعتقد من الصواب » .

١٠- توقير الكبير و عدم إنكار فضل من اختلفت معه و تشويه صورته :
و رُوي : « إن فتىً جاء إلى سفيان بن عيينة من خلفه ، و قال : يا سفيان حدثني ، فالتفت إليه و قال : يا بني ، من جهل أقدار الرجال فهو بنفسه أجهل » .

و للنظر إلى الخلاف الذي حدث بين علي و معاوية رضي الله عنهما ، فكل منهما رأى رأيًا ؛ روى أحمد في مسنده و أبو نعيم في الحلية و ابن الجوزي في صفة الصفوة ، عن أبي صالح قال : قال معاوية بن أبي سفيان لضرار بن ضمرة : صف لي عليًا ، فقال : أو تعفيني ؟ ، قال : بل صفه ، قال : أو تعفيني ؟ قال : لا أعفيك . قال : أما إذا ، فإنِّه والله كان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلا و يحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، و ينطق بالحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا و زهرتها ، و يستأنس بالليل و ظلمته ، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة ، يقلب كفه و يخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن و من الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، و يبتدئنا إذا أتيناه ، و يأتينا إذا دعوناه ، و نحن والله مع تقريبه لنا و قربه منا لا نكلمه هيبة ولا نبتديه لعظمه ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظّم أهل الدين و يحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، و لا ييأس الضعيف من عدله ، و اشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه و قد أرخى الليل سجوفه و غارب نجومه ، و قد مثل في محرابه قابضًا على لحيته ، يتململ تململ السليم

و يبكي بكاء الحزين ، و كأنّي أسمعه و هو يقول : يا دنيا يا دنيا أبي تعرضت أم لي تشوفت ؟ ، هيهات هيهات غري غيري قد بنتك ثلاثا ، لا رجعة لي فيك فعمرك قصير و عيشك حقير و خطرك كبير ، آه من قلة الزاد و بعد السفر و وحشة الطريق .

قال : فذرفت دموع معاوية رضي الله عنه حتى خرت على لحيته ، فما يملكها و هو ينشفها بكمه و قد اختنق القوم بالبكاء ، ثم قال معاوية : رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك .

هذا والله أعظم آداب الخلاف ، أن تعترف بفضل من اختلفت معه ، و لا تشوه صورته بالباطل و تتهمه بما ليس فيه .

١١- اللين في يد المخالف و التودد و السّكينة و الوقار :
و البعد عن مسائل التشقيق و الشغب ، و كل ما يورث الفتنة بين المسلمين ، و رؤية المحاسن و التعامي عن المعايب ، و مخالفة حظ النفس ، و الحفاظ على خط الرجعة ، و الإبقاء على خيط المودة ، و عدم الإغراق في الخصومة أو التعنيف ، و الحرص على تأليف القلوب .أ.هـ

- إحسان الظن بالعلماء :
و أن لا يعتقد أنهم تعمدوا ترك الحق الذي بان له – و قد يكون هو المخطئ - ، و عليه فلا يعتقد هلكتهم في خلافهم له ، بل يلتمس لهم العذر في ذلك .

قال صلى الله عليه و سلم : « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، و إذا حكم فأخطأ فله أجر » . البخاري و مسلم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « و كثير من مجتهدي السلف و الخلف قد قالوا و فعلوا ما هو بدعة و لم يعلموا أنه بدعة ، إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة ، و إما لآيات فهموا منها ما لم يُرد منها ، و إما لرأي رأوه ، و في المسألة نصوص لم تبلغهم ، و إذا اتقى الرجل ربه ما استطاع دخل في قوله : (رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) البقرة ٢٨٦. و في الصحيح قال: « قد فعلت » . مسلم .

ومنه قول علي رضي الله عنه لعمر بن طلحة بن عبيد الله ، و كان بينه و بين طلحة خلاف يوم الجمل : « إني لأرجو أن يجعلني الله و إياك في الذين قال الله عز وجل فيهم : (وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ) الحجر ٤٧ . رواه الحاكم و البيهقي في السنن .

قال يحيى بن سعيد الأنصاري : « ما برح أولو الفتوى يختلفون ، فيحل هذا و يحرم هذا ، فلا يرى المحرّم أن المحل هلك لتحليله ، و لا يرى المحل أن المحرم هلك لتحريمه » . جامع بيان العلم .

و يقول الذهبي عن التابعي قتادة السدوسي : « كان يرى القدر نسأل الله العفو .. و لعل الله يعذر أمثاله ممن تلبس ببدعة يريد بها تعظيم الباري و تنزيهه و بذل وسعه .. إذا كثر صوابه ، و علم تحريه للحق ، و اتسع علمه و ظهر ذكاؤه و عرف صلاحه و ورعه و إتباعه يغفر له زلله ، و لا نضلله و نطرحه و ننسى محاسنه ، نعم و لا نقتدي به في بدعته و خطئه ، و نرجو له التوبة من ذلك » . سير أعلام .

و في المتأولين في خلاف شاذ (من أحل نكاح المتعة أو ربا الفضل) ، يقول ابن تيمية في تحقق النصوص الشرعية التي جاءت بالوعيد لمن صنع ذلك : « فلا يجوز أن يقال : إن هؤلاء مندرجون تحت الوعيد ، لما كان لهم العذر الذي تأولوا به ، - أو لموانع أخرى- أن لا يؤدي الخلاف إلى جفوة و فتنة بين المختلفين » .

و في ذلك يقول شيخ الإسلام : « كانوا يتناظرون في المسائل العلمية و العملية مع بقاء الألفة و العصمة و أخوة الدين ، و لو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة و لا أخوة » .

و قال محمد بن أحمد الفنجار : « كان لابن سلام مصنفات في كل باب من العلم ، و كان بينه و بين أبي حفص أحمد بن حفص الفقيه مودة و أخوة مع تخالفهما في المذهب » . سير أعلام النبلاء

و نال أحدهم من عائشة رضي الله عنها يوم الجمل ، و سمعه عمار رضي الله عنه فقال : « اسكت مقبوحًا منبوحًا، أتؤذي محبوبة رسول الله صلى الله عليه و سلم ، أشهد أنها زوجة رسول الله رسول الله صلى الله عليه و سلم في الجنة». الترمذي .

قتل رجل رجل آخر وجده مع زوجته ، فرفع الأمر إلى معاوية رضي الله عنه فأشكل ذلك عليه ، فكتب إلى أبي موسى رضي الله عنه أن يسأل له علياً رضي الله عنه ، فكتب إليه علي رضي الله عنه بالجواب .

رغم الخلاف الشديد بين أهل الرأي و الحديث يقول شعبة ـ رحمه الله ـ عند وفاة أبي حنيفة ـ رحمه الله : « لقد ذهب معه فقه الكوفة ، تفضلّ الله عليه و علينا برحمته » .

و يقول الشافعي : « الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة ».

صلى الشافعي - رحمه الله - الصبح في مسجد أبي حنيفة ، فلم يقنت و لم يجهر «بسم الله» ، تأدباً مع أبي حنيفة رحمهما الله .

قال القرطبي : « كان أبو حنيفة و أصحابه و الشافعي و غيرهم ، يصلون خلف أئمة أهل المدينة من المالكية ، و إن كانوا لا يقرأون البسملة لا سراً و لا جهراً ، و صلى أبو يوسف خلف الرشيد و قد احتجم ، و أفتاه مالك بأنه لا يتوضأ فصلى خلفه أبو يوسف و لم يعد » .

ويتحدث الذهبي عن ابن خزيمة و تأوله حديث الصورة فيقول : « فليُعذر من تأول بعض الصفات ، و أما السلف فما خاضوا في التأويل بل آمنوا و كفوا ، و فوضوا علم ذلك إلى الله و رسوله ، و لو أنَّ كل من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه و توخيه لإتباع الحق أهدرناه و بدعناه ، لقل من يسلم من الأئمة معنا » . سير أعلام النبلاء .

و يقول الذهبي - رحمه الله - في تعليقه على اختلاف الناس في أبي حامد الغزالي - رحمه الله - بين مادح و ذام : « مازال العلماء يختلفون و يتكلم العالم في العالم باجتهاده ، و كل منهم معذور مأجور ، و من عاند أو خرق الإجماع فهو مأزور ، و إلى الله ترجع الأمور » . سير أعلام النبلاء.

لما كتب الإمام مالك الموطأ ، أراد أبو جعفر المنصور أن يحمل الناس جميعاً عليه ، فأبى مالك - يرحمه الله - ، فقال : يا أمير المؤمنين إنَّ أصحاب رسول الله قد تفرقوا في الأمصار ، و مع كل منهم علم ، فدع الناس و ما اختار أهل كل بلد لأنفسهم .

الشيخ الألباني رحمه الله الذي يرى أن وضع اليد بعد القيام من الركوع على الصدر بدعة , فسُئل لو صليت خلف الشيخ عبد العزيز ابن باز ماذا تفعل ؟ ، قال : أتابعه و أضع يدي على صدري .

- مجانبة الحقد عند الخلاف :
ومنها مجانبة الحقد ، و لزوم الصفح ، و العفو عن الإخوان .

قال هلال بن العلاء : جعلت على نفسي ألا أكافئ أحداً بشرٍ و لا عقوقٍ ، اقتداءً بهذه الأبيات :

لمّا عَفوتُ وَ لَم أَحقِد عَلى أَحَدٍ ... أَرَحتُ نَفسِيَ مِن غَمّ العَداواتِ
إنّي أُحيّي عَدوِّي حينَ رُؤيَتِهِ ... لِأَدفَعَ الشَرَّ عَنّي بِالتَحيِّ
و أُظهِرُ البِشرَ لِلإِنسانِ أبغِضُهُ ... كَأَنَّهُ قَد حُشيَ قَلبي مَسَرِّ

و في النهاية ننقل إليكم أقوال العلماء في الاختلاف :
قال سحنون بن سعيد رحمه الله: « يكون عند الرجل باب واحد من أبواب العلم فيظن العلم كله عنده « . ترتيب المدارك

و قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: « إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختلف فيه ، و أنت ترى غيره فلا تنهه ». الفقيه و المتفقه

و قال أيضًا : « ما اختلف فيه الفقهاء فلا أنهى أحداً من إخواني أن يأخذ به « . الفقيه و المتفقه

و قال الإمام أحمد : « من أفتى الناس ، ليس ينبغي أن يحمل الناس على مذهبه و يشدد عليهم » . الآداب الشرعية ابن مفلح .

قال النووي : « إنَّ المختلف فيه لا إنكار فيه ، و لكن إن ندبه على وجه النصيحة إلى الخروج من الخلاف ، فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق » . الآداب الشرعية ابن مفلح .

و قال ابن قدامة المقدسي : « لا ينبغي لأحد أن ينكر على غيره العمل بمذهبه ، فإنَّه لا إنكار على المجتهد » . الآداب الشرعية .

و قال ابن رجب الحنبلي : « و المنكر الذي يجب إنكاره ما كان مجمعاً ، فأما المختلف فيه فمن أصحابنا من قال لا يجب إنكاره على فعله مجتهداً أو مقلداً لمجتهد تقليداً سائغاً » . جامع العلوم والحكم .

و قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: « مسائل الاجتهاد من عمل فيها بقول بعض العلماء لم ينكر عليه و لم يهجر ، و من عمل بأحد القولين لم ينكر عليه » . الفتاوى الكبرى .

و قال شيخ الإسلام أيضًا : « إنَّ ما فيه خلاف ، إن كان الحكم المخالف يخالف سنة أو إجماعاً وجب الإنكار عليه ، و كذلك يجب الإنكار على العامل بهذا الحكم ، و إن كانت المسألة ليس فيها سنة و لا إجماع و للاجتهاد فيها مساغ ، فإنّه لا ينكر على المخالف لرأي المنكر و مذهبه » . الفقه الغائب .

و يقول ابن القيم رحمه الله : « و الفرق بين الحكم المنزل الواجب الإتباع و الحكم المؤول الذي غايته أن يكون جائز الاتباع ، أنَّ الحكم هو المنزل الذي نزله الله على رسوله و حكم به بين عباده و هو حكمه الذي لا حكم سواه » .

اللهم أرنا الحق حقًا و ارزقنا إتباعه ، و أرنا الباطل باطلًا و ارزقنا اجتنابه ..

الجدال

إنّ الحمد لله، نحمده و نستعينه ، و نستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادي له ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمدًا عبده و رسوله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) آل عمران ١٠٢ ، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) النساء ١ ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) الأحزاب ٧٠ - ٧١ .

أما بعد ، فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله ، و أحسن الهدي هدي محمد ، و شر الأمور محدثاتها ، و كل محدثة بدعة و كل بدعة ضلالة ، و كل ضلالة في النار .

قال تعالى : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) .

الجدال طبع من طبائع خلقة الإنسان ، و منه ما هو محمود و منه ما هو مذموم .

و نريد أن نفرّق بين الجدال و المراء .

تعريف الجدال :

و أصل الجدال هو : الدفاع عن شيء ، و هذا الشيء إما حق و إما باطل .
(يوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا) النحل ١١١ . أي : تدافع عن نفسها .
و الجدال : محاورة لإرجاع الحق إلى مكانه .

قال تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) المجادلة ١ .

الجدال كما هو واضح في الآية ، محاورة بهدف إظهار الحق ، لقوله تعالى : (وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا) ، و المحاورة معناها الرجوع .

لقوله تعالى : (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ) الانشقاق ١٤ . أي : ظنّ أن لن يرجع .

و الجدال لا يكون إلا بالتي هي أحسن ؛ كما قال تعالى : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) النحل ١٢٥ .

(لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) العنكبوت ٤٦.

و قد ضرب الله لنا مثلًا كيف يكون الجدال ، كما جاء في سورة مريم :

(وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَ لَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) .

فلما بدأ الجدال يتحول إلى خصومة و مراء ، نهاه إبراهيم عليه السلام بالتي هي أحسن كما بدأه ، (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) .

فهنا نرى حقيقة الجدال ، و هو رد الخصم بالكلام عن قصده الباطل ؛ أي تحاول إرجاع أخيك إلى طريق الحق ، لأننا قلنا أنَّ الجدال محاورة و المحاورة الرجوع
كما قال تعالى : (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ) .

فإذا وجدت أخيك لا يستجيب ، فاحذر أن يتحول الجدال إلى مراء و خصومة ، لأن أغلب الخصومات بسبب الجدال .

قال النووي - رحمه الله - : « و مما يذم من الألفاظ : الجدال ، المراء ، الخصومة ؛ أما الجدال : فهو نقاش ، الهدف منه الوصول إلى الحق فإذا تعنت أحد الأطراف تحول إلى مراء » انتهى كلام الشيخ .

تعريف المراء :

أما المراء أخي المسلم فهو كما عرفه الغزالي رحمه الله : « طعنك في كلام أخيك لإظهار خلل فيه بغرض تحقيره و إظهار مزيتك عليه » .

و أيضًا قالوا : « قصد إفحام الغير و تعجيزه و تنقيصه بالقدح في كلامه و نسبته إلى القصور و الجهل ، و الباعث على ذلك هو الترفع و إظهار العلم و الفضل و التهجم على الغير بإظهار النقص فيه ؛ و أمّا إظهار الفضل فهو من قبل تزكية النفس و إظهار الفضل على الغير و هو من الطبائع المذمومة » .

و اعلم أخي المسلم أنَّ الجدال إذا تحول إلى مراء فانه سيتحول إلى خصومة تقطع المحبة بينك و بين أخيك ، و تزرع بينكم العداوة و البغضاء و يبدأ كل واحد منكما يبحث عن زلات أخيه ليفضحه بين الناس ، و يبحث كيف يجرح أخيه ليسقطه أمام الناس .

و أيضًا الجدال يؤدى إلى الحسد ، فإذا كان أحد المتجادلين حجته أقوى ، حسده الآخر ؛ و أيضًا الحقد فإن غلبه في الجدال قد يحقد عليه ، فكن على حذر .

وللجدال أضرار جسيمة جاءت في الكتاب و السنة ، نذكرها بإذن الله تعالى لنعرف خطورة الجدال .

مضار الجدال :

١- صفة من صفات الكافرين :
(و يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) الكهف ٥٦ .

و قوله تعالى : (وَ قَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) الزخرف ٥٨ .

٢- و أيضًا من صفات أولياء الشيطان :
(وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) الأنعام ١٢١ .

٣- من صفات المتكبرين :
(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) غافر ٥٦ .

٤- من أسباب العذاب :
قال تعالى : (وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) الحج .

فانظر إلى هذا الوعيد من الله تعالى لمن جادل في الله و في الدين بغير أن يكون عنده أي وسيلة من وسائل إظهار الحق . و هذه الوسائل هي : العلم ، الهدى و الكتاب .

فهذا المجادل الذي يجادل بالباطل لمجرد الجدال و لمجرد الاختلاف توعده الله بالخزي في الدنيا و العذاب يوم القيامة .
وقوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) الحج ٣ .

٥- يفسد العبادة :
(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِّ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ) البقرة ١٩٧ .

قال مالك - رحمه الله تعالى - : قال الله تعالى : (فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ) ، الرّفث : إصابة النّساء ، و الفسوق : الذّبح للأنصاب، و الجدال في الحجّ : أنَّ قريشًا كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة بقزح ، و كانت العرب و غيرهم يقفون بعرفة فكانوا يتجادلون ، يقول هؤلاء : نحن أصوب ، و يقول هؤلاء : نحن أصوب . فقال الله تعالى : (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ) الحج . فهذا الجدال .

الجدال في السنة :

٦- الكفر :

عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : « لا تجادلوا في القران فإنَّ الجدال فيه كفر » . السلسلة الصحيحة الألباني .

٧- من علامات الضلال بعد الهدى :

وَ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ » . ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ هَذِهِ الآيَةَ : (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جدلًا بل هم قوم خصمون) . رَوَاهُ أَحْمد وَ التِّرْمِذِيّ وَ ابْن مَاجَه و صححه ألألباني .

و هو نوع من الكفر .

٨- يوقع الفتنة و البغضاء :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « كنَّا جلوسًا عند باب رسول الله صلى الله عليه و سلم نتذاكر ينزع هذا بآية و ينزع هذا بآية ، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم كما يفقأ في وجهه حب الرمان ، فقال : يا هؤلاء بهذا بعثتم أم بهذا أمرتم ؟ ، لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض » . حسنه الألباني

فتدبر أخي المسلم ما يجره الجدال على صاحبه من العواقب الوخيمة و الآثار العظيمة و الأضرار الجسيمة ، و إذا أردت أن تكون مصلحًا حقًا فعليك أن تبتعد عن الجدال .

و كان السلف رحمهم الله يدركون خطورة الجدال ، لذلك فقد تكلموا فيه ؛ و قد نقلت لكم بعض أقوال سلفنا الصالح رحمهم الله في الجدال لتتدبروا و ليتدبر أولو الألباب .

أقوال السلف في الجدال :

١- قال سليمان بن داود - عليهما السّلام - لابنه : « دع المراء، فإنّ نفعه قليل ، و هو يهيّج العداوة بين الإخوان ».

٢- عن زياد بن حدير قال : قال لي عمر : « هل تعرف ما يهرم الإسلام ؟ ، قال: قلت: لا. قال : يهرمه زلّة العالم ، و جدال المنافق بالكتاب ، و حكم الأئمّة المضلّين » .

٣- و قال عمر رضي الله عنه : « إنّه سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسّنن ؛ فإنّ أصحاب السّنن أعلم بكتاب الله » .

٤- قال عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه - لإياس بن عمر - رحمه الله - : « القرآن ثلاثة أصناف : فصنف لله ، و صنف للجدال ، و صنف للدّنيا ، و من طلب به أدرك » .

٥- قال أبو الدّرداء رضي الله عنه : لا تكون عالمًا حتّى تكون متعلّما ، و لا تكون بالعلم عالمًا حتّى تكون به عاملًا ، و كفى بك إثمًا أن لا تزال مخاصمًا ، و كفى بك إثمًا أن لا تزال مماريًا، و كفى بك كذبًا أن لا تزال محدِّثا في غير ذات الله » .

٦- « قال ميمونٍ بن مهران - رحمه الله - يوصي بعض تلامذته : « إيّاك و الخصومة و الجدال في الدّين ، و لا تجادلنّ عالمًا و لا جاهلا . أمّا العالم فإنّه يحزن عنك علمه ، و لا يبالي ما صنعت ؛ و أمّا الجاهل فإنّه يخشّن بصدرك ، و لا يطيعك » .

٧- كتب عمر بن عبدِ العزيز- رحمه الله- إلى أهل المدينة : « من تعبّد بغير علم كان ما يفسد أكثر ممّا يصلح ، و من عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلّا فيما يعنيه ، و من جعل دينه غرضا للخصومات كثر تنقّله » .

٨- و قال - رحمه الله تعالى - : « قد أفلح من عصم من المراء و الغضب و الطّمع » .

٩- قال الأوزاعيّ - رحمه الله تعالى - : « إذا أراد الله بقوم شرّا ألزمهم الجدل ، و منعهم العمل » .

١٠- قال مسعر بن كدام - رحمه الله تعالى - يوصي ابنه كدام :

إنّي منحتك يا كدام نصيحتي ... فاسمع لقول أب عليك شفيق
أمّا المزاحة و المراء فدعهما ... خلقان لا أرضاهما لصديق
إنّي بلوتهما فلم أحمدهما ... لمجاور جارا و لا لرفيق
و الجهل يزري بالفتى في قومه ... و عروقه في النّاس أيّ عروق ؟

١١- قال سهل بن عبد الله التّستريّ - رحمه الله تعالى - لرجل سأله متى يعلم الرّجل أنّه من أهل السّنّة و الجماعة ؟ ، فقال: إذا عرف من تسع خصال : « لا يترك الجماعة ، و لا يسبّ أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم ، و لا يخرج على هذه الأمّة بالسّيف ، و لا يكذّب بالقدر ، و لا يشكّ في الإيمان ، و لا يماري في الدّين ، و لا يترك الصّلاة على من يموت من أهل القبلة بالذّنب ، و لا يترك المسح على الخفين ، و لا يترك الجماعة (أو قال الجمعة) خلف كلّ وال جار أو عدل » .

١٢- روي عن يزيد بن هارون - رحمه الله تعالى - أنّه كان جالسًا في مجلس ، فذُكر حديث الرّؤية ، فقال له رجل في المجلس : يا أبا خالد ما معنى هذا الحديث ؟ ، فغضب و قال : ما أشبهك بصبيغ و أحوجك إلى مثل ما فعل به . ويلك ، و من يدري كيف هذا ؟ ، من يجوز له أن يجاوز هذا القول الّذي جاء به الحديث أو يتكلّم فيه بشيء من تلقاء نفسه إلّا من سفه نفسه و استخفّ بدينه ؟! ، إذا سمعتم الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم فاتّبعوه و لا تبتدعوا فيه، فإنّكم إن اتّبعتموه و لم تماروا فيه سلمتم ، و إن لم تفعلوا هلكتم » .

١٣- و قال ابن أبي الزناد : « ما أقام الجدلُ شيئاً إلا كسره جدلٌ مثله « .

١٤- قال الأصمعي : « سمعت أعرابياً يقول : من لاحى الرجال و ماراهم قلَّتْ كرامته ، و من أكثر من شيء عُرِف به » .

١٥- و قال عبدالله بن حسين بن علي – رضي الله عنهم - : « المراء رائد الغضب ، فأخزى الله عقلاً يأتيك بالغضب » .

١٦- و قال محمد بن علي بن حسين – رضي الله عنهم - : « الخصومة تمحق الدين ، و تنبت الشحناء في صدور الرجال » .

١٧- و قيل لعبدالله بن حسن بن حسين : « ما تقول في المراء ؟ ، قال : يفسد الصداقة القديمة ، و يحل العقدة الوثيقة . و أقل ما فيه أن يكون دريئة للمغالبة ، و المغالبة أمتن أسباب القطيعة » .

١٨- و قال جعفر بن محمد – رحمه الله - : « إياكم و هذه الخصومات ، فإنها تحبط الأعمال » .

١٩- و قيل للحكم بن عتيبة الكوفي – رحمه الله - : « ما اضطر الناس إلى هذه الأهواء ؟ ، قال : الخصومات » .

٢٠- قال مالك : « الجدال في الدين من بقايا النفاق » ، قال القاسم : « بل هو النفاق كله » .

٢١- و عند مالك : « الجدال في الدين ينشئ المراء ، و يذهب بنور العلم من القلب ، و يقسّي القلب ، و يورث الضغائن » .

منهج السلف في الجدال :

قال الخطيب : (و يخلص النية في جداله بأن يبتغي وجه الله تعالى ... و ليكن قصده في نظره إيضاح الحق و تثبيته دون المغالبة للخصم) .

منهج الأئمة رحمهم الله في الجدال :

سأل رجل أحمد ابن حنبل قال : ادخل المسجد ليس فيه رجل يعمل بالسنة غيري ، فيتكلم رجل من أهل البدعة ، أفأجادله ؟ ، فقال : لا ، أخبر السنة و لا تخاصم .

انظر أخي المسلم إلى إمام أهل السنة أحمد ابن حنبل رحمه الله ، كيف كان يعلم تلاميذه أن يتركوا الجدال و إن كانوا محقين ! ، قال : أخبر بالسنة و لا تجادل .

و تخيل نفسك في هذا الموقف رأيت رجل على بدعة مخالفة للدين ، فنصحته و أخبرته أنَّ السنة كذا وكذا ، فإذا به يرفض النصيحة ويريد الجدال ، لا تكثر معه ، بل قل له : جزاك الله خيرًا ، و اعرض عنه ؛ و تذكر قوله تعالى : (وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) الأعراف ١٩٩ .

و سُئل مالك : الرجل يكون عالمًا بالسنة ، أفيجادل عنها ؟ ، فقال مالك : لا ، بيّن السنة ، فإن قبلت منك و إلا فلا تخاصم .

وهذا مالك ينصح بما نصح به أحمد ، فهم جميعا أخذوا من مشكاة واحدة ، أخذوا من نور النبوة .

و جادل رجل الشافعي فلم يجبه فلما سألوه قال :

قالوا سكتَّ و قد خوصمتَ قلتُ لهم ... إنَّ الجوابَ لِبَابِ الشَّرِّ مفتاحُ
و الصمت عن جاهلٍ أو أحمقٍ شرفٌ ... و فيه أيضاً لصون العرض إصلاحُ
أما ترى الأسْدَ تُخشَى و هي صامتةٌ ... و الكلب يُخسى لعمري و هو نباحُ

و ها هو الشافعي الذي كان يلقب شمس الدنيا ، يخبرنا أنَّ الجدال مفتاح لباب الشر ، و أنَّ الإنسان ليس عيبًا عليه أن يسكت ، و ضرب لنا مثلًا بالسباع و ما لها من هيبة في قلوب الناس و هي صامتة لا تكثر من النباح ، و الكلب كثير النباح الذي لا قيمة له .

و في النهاية مسك الختام ، و هي بشرى من رسول الله صلى الله عليه و سلم بالجنة لمن ترك الجدال ، فقال : « أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء و إن كان محقًا » . رواه أبو داود بسند حسن عن أبي أمامة و للترمذي نحوه من حديث أنس و حسنه .

عليك أخي المسلم إذا أردت أن تكون مصلحًا أن تحذر هذه آلافة العظيمة ، وعود نفسك إذا أسديت النصيحة للمسلمين و وجدت أنَّ باب الجدال سيفتح فأغلقه ، و لا تدع الشيطان يوسوس لك ، و يقول : أنّك على حق و ليس عليك ترك المناقشة حتى يقتنع من أمامك ، اعلم أنَّ هذا من الشيطان ، و تذكر وعد النبي بقصر في الجنة لمن ترك الجدال و هو محق .

و اعلم أخي أنَّ الجدال هو رد أخيك إلى الحق و ليس استعلاء عليه أو إظهار فضلك ، فافطن لهذا الكلام تكن صالحًا مصلحًا بإذن الله .

اللهم أرنا الحق حقًا و ارزقنا إتباعه و أرنا الباطل باطلًا و ارزقنا اجتنابه .

الهجر

إنّ الحمد لله، نحمده و نستعينه ، و نستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادي له ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أشهد أن محمدًا عبده و رسوله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) آل عمران ١٠٢ ، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) النساء ١ ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) الأحزاب ٧٠ - ٧١ .

أما بعد ، فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله ، و أحسن الهدي هدي محمد ، و شر الأمور محدثاتها ، و كل محدثة بدعة و كل بدعة ضلالة ، و كل ضلالة في النار .

إنَّ الهجر من أعظم وسائل التربية و التأديب في الإسلام ، فهو أشد إيلامًا من الضرب بالسياط و لذلك فقد استعمله النبي صلى الله عليه و سلم مع الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك .

و ملخص هذا الأمر أنَّ النبي صلى الله عليه و سلم خرج في غزوة و كانت في شدة الحر فتخلف بعض الصحابة ، و لما عاد جاء المنافون يعتذرون عن عدم الخروج بحجج كاذبة ، و اعترف ثلاثة من الصحابة بأنهم لم يخرجوا تقصيرًا منهم و لم يكن عندهم أي عذر يمنعهم من الخروج ، فأمر النبي أهل المدينة أن يعاقبوهم بالهجر حتى ينزل الله فيهم حكما . قال تعالى : (وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) التوبة ١١٨ .

سبحان الله ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، هذه الأرض الواسعة الفسيحة أصبحت أضيق من ثقب الإبرة ، و أيضًا ضاقت عليهم النفس و ضيق النفس من أشد الأمور إيلامًا على الإنسان .

و لكن قد يتساءل البعض : كيف نوفق بين هذا الهجر و نهي النبي عن الهجر ؟
فيما رواه مسلم عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَالَ : « لاَ تَبَاغَضُوا وَ لاَ تَحَاسَدُوا وَ لاَ تَدَابَرُوا ، وَ كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ، وَ لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ » صحيح .

نقول أنَّ الهجر المحرم هو الهجر من أجل الدنيا و خلافات الدنيا و هذا حرام شرعًا ولا يجوز أن يهجر المسلم المسلم فوق ثلاث لخلافات الدنيا ، أما الهجر من أجل الدين أو بغرض الإصلاح فهو أصل من أصول التأديب و التربية في الشرع .

و قد ثبت الهجر في القران و السنة :

و قد جاء الهجر في كتاب الله في ثلاث مواضع :

١.(وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ) ، و هو هجر المعاصي و المنكرات .
٢.(وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ) .
٣.(وَ اهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) .
وَ قد قيل : إن الهجر الْجَمِيل هُوَ هجر بِلَا أَذَى - الفتاوى ابن تيمية - .

قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله :

الهجر الشرعي نوعان :
أحدهما : بمعنى الترك للمنكرات ، و الثاني : بمعنى العقوبة عليها .

فالنوع الأول : هو المذكور في قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) الأنعام ٦٨ ، و قوله : (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ) النساء ١٤٠ ، فهذا يراد به أنه لا يشهد المنكرات لغير حاجة مثل قوم يشربون الخمر لا يجلس عندهم ، و قوم دعوا إلى وليمة فيها خمر و زمر لا يجيب دعوتهم و أمثال ذلك ، بخلاف من حضر عندهم للإنكار عليهم أو حضر بغير اختياره ، و لهذا يقال حاضر المنكر كفاعله .

وَمَنْ كَانَ مُبْتَدِعًا ظَاهِرَ الْبِدْعَةِ ، وَجَبَ الْإِنْكَارُ عَلَيْهِ وَ مِنَ الْإِنْكَارِ الْمَشْرُوعِ أَنْ يُهْجَرَ حَتَّى يَتُوبَ ، وَ مِنَ الْهَجْرِ امْتِنَاعُ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ لِيَنْزَجِرَ مَنْ يَتَشَبَّهُ بِطَرِيقَتِهِ ، وَ يَدْعُو إلَيْهِ ، وَ قَدْ أَمَرَ بِمِثْلِ هَذَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ، وَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، وَ غَيْرُهُمَا مِنَ الْأَئِمَّةِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . - الفتاوى ابن تيمية -

النوع الثاني الهجر للتأديب : و هذا الهجر ما فعله النبي صلى الله عليه و سلم مع الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو كما ذكرنا في بداية الموضوع .

و نحن نسوق لكم أمثلة من التأديب بالهجر :

١-هجر عائشة لتأديب عبد الله ابن الزبير :

روى البخاري في صحيحه :

- أَنَّ عَائِشَةَ ، حُدِّثَتْ : أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ : فِي بَيْعٍ أَوْ عَطَاءٍ أَعْطَتْهُ عَائِشَةُ : وَاللَّهِ لَتَنْتَهِيَنَّ عَائِشَةُ أَوْ لَأَحْجُرَنَّ عَلَيْهَا ، فَقَالَتْ: أَهُوَ قَالَ هَذَا ؟ ، قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَتْ : هُوَ لِلَّهِ عَلَيَّ نَذْرٌ ، أَنْ لاَ أُكَلِّمَ ابْنَ الزُّبَيْرِ أَبَدًا . فَاسْتَشْفَعَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَيْهَا ، حِينَ طَالَتِ الهِجْرَةُ ، فَقَالَتْ: لاَ وَاللَّهِ لاَ أُشَفِّعُ فِيهِ أَبَدًا ، وَ لاَ أَتَحَنَّثُ إِلَى نَذْرِي . فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ، كَلَّمَ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ ، وَ هُمَا مِنْ بَنِي زُهْرَةَ ، وَ قَالَ لَهُمَا : أَنْشُدُكُمَا بِاللَّهِ لَمَّا أَدْخَلْتُمَانِي عَلَى عَائِشَةَ ، فَإِنَّهَا لاَ يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَنْذِرَ قَطِيعَتِي . فَأَقْبَلَ بِهِ المِسْوَرُ وَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مُشْتَمِلَيْنِ بِأَرْدِيَتِهِمَا ، حَتَّى اسْتَأْذَنَا عَلَى عَائِشَةَ ، فَقَالاَ : السَّلاَمُ عَلَيْكِ وَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ أَنَدْخُلُ ؟ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : ادْخُلُوا ، قَالُوا : كُلُّنَا ؟ ، قَالَتْ :

نَعَم ، ادْخُلُوا كُلُّكُمْ ، وَ لاَ تَعْلَمُ أَنَّ مَعَهُمَا ابْنَ الزُّبَيْرِ ، فَلَمَّا دَخَلُوا دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الحِجَابَ ، فَاعْتَنَقَ عَائِشَةَ وَ طَفِقَ يُنَاشِدُهَا وَ يَبْكِي ، وَ طَفِقَ المِسْوَرُ وَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يُنَاشِدَانِهَا إِلَّا مَا كَلَّمَتْهُ ، وَ قَبِلَتْ مِنْهُ ، وَ يَقُولاَنِ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ نَهَى عَمَّا قَدْ عَلِمْتِ مِنَ الهِجْرَةِ ، فَإِنَّهُ : « لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ » ؛ فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَى عَائِشَةَ مِنَ التَّذْكِرَةِ وَ التَّحْرِيجِ ، طَفِقَتْ تُذَكِّرُهُمَا نَذْرَهَا وَ تَبْكِي وَ تَقُولُ : إِنِّي نَذَرْتُ ، وَ النَّذْرُ شَدِيدٌ ، فَلَمْ يَزَالاَ بِهَا حَتَّى كَلَّمَتْ ابْنَ الزُّبَيْرِ ، وَ أَعْتَقَتْ فِي نَذْرِهَا ذَلِكَ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً ، وَ كَانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا بَعْدَ ذَلِكَ ، فَتَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ دُمُوعُهَا خِمَارَهَا .

٢- تأديب عمر لولده بالهجر :

ما رواه مسلم عَنِ ابْنِ شِهَابٍ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَقُولُ: « لاَ تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمُ المَسَاجِدَ إِذَا اسْتَأْذَنَّكُمْ إِلَيْهَا » ، قَالَ: فَقَالَ بِلاَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: وَاللهِ لَنَمْنَعُهُنَّ ، قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ : فَسَبَّهُ سَبًّا سَيِّئًا مَا سَمِعْتُهُ سَبَّهُ مِثْلَهُ قَطُّ ، وَ قَالَ : « أُخْبِرُكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَ تَقُولُ: وَاللهِ لَنَمْنَعُهُنَّ » ؛ فحلف ابن عمر أن لا يكلمه و قد هجره .

٣- تأديب عبد الله ابن مغفل لابن أخيه بالهجر :

ما أخرجه ابن ماجه في سننه عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن مغفل ، أنه كان جالسا إلى جنبه ابن أخ له فخذف فنهاه ، و قال : إنَّ رسول الله صلى الله عليه و سلم نهى عنها ، فقال : إنها لا تصيد صيدًا و لا تنكي عدوًا و إنها تكسر السن وتفقأ العين ، قال : فعاد ابن أخيه فخذف ، فقال : أحدثك أنَّ رسول الله صلى الله عليه و سلم نهى عنها ثم عدت تخذف لا أكلمك أبدًا .

و الآن بعد أن رأينا كيف أن الهجر يستخدم للتقويم و التأديب ، فكيف نطبق الهجر إذا كان الهجر يأتي بنتيجة عكسية ماذا نصنع ؟

الهجر لا يكون إلا بعد النصيحة فإذا لم تأتي النصيحة بنتيجة نلجأ إلى الهجر .
- قد تكلمنا عن النصيحة في هذا الكتاب فليُرجع إليها - .

و المقصد من الهجر هو التأديب و ليس الإيذاء ، فنحن عندما نهجر إنسان إنما نلفت نظره أنه مخطئ و أن عليه أن يعيد تفكيره فيما يصنع .

و لا يجوز بأي حال من الأحوال هجر الأبوين ، و أن ننصحهم بحيث لا نتجاوز قوله تعالى : (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ) الإسراء ٢٣ .

و لا نهجرهم ، بل كما قال تعالى : (وَ صَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) لقمان ١٥.

و هجر الزوجة وسيلة من وسائل التأديب ، قال تعالى : (وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ) النساء ٣٤.
قال ابن تيميه في الفتاوى هُوَ : أَنْ تَنْشِزَ عَنْ زَوْجِهَا فَتَنْفِرَ عَنْهُ بِحَيْثُ لَا تُطِيعُهُ إذَا دَعَاهَا لِلْفِرَاشِ ، أَوْ تَخْرُجَ مِنْ مَنْزِلِهِ بِغَيْرِ إذْنِهِ ، وَ نَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ امْتِنَاعٌ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهَا مِنْ طَاعَتِهِ .

و قوله تعالى : (وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ) مع قوله صلى الله عليه و سلم : « و لا تهجر إلا في المضجع » دليل على وجوب المبيت ؛ فعلى الرجل الذي يهجر زوجته أن يبيت معها في نفس البيت و نفس الغرفة و نفس الفراش كما تعود ، لكنه لا يحاول أن يعاشرها أو يقترب منها ، و هذا يكون بعد الوعظ كما قلنا سابقًا .

و أيضًا هجر الأبناء إذا لم يستجيبوا للنصح ، و مثال ذلك : ألا يجدوا المودة من الأب ، و لا يجلس معهم و لا يأكل معهم .

و أيضًا هجر أصحاب البدع و المعاصي ، لكن إذا كان الهجر سيؤدى إلى ضرر بأن يعاند الشخص الذي ستهجر ، و يزداد إثمًا و معصية ، فهنا لا توجد مصلحة من وراء الهجر ، فتركه أفضل ، و عليك بالنصيحة مع التزام آداب النصيحة .

و إذا كان من ستهجره سيتسبب في إيذاءك ،مثل : أن يكون لك جار سوء أو صاحب عمل مؤذي ، و هو مكب على المعاصي و المنكرات ، و أنت إذا هجرته قد يتربص بك و يكيد لك المكائد ، فهنا عليك بالمدارة و هو أمر مشروع لدفع الضرر .

أخرج البخاري عَنْ عُرْوَةَ ، عَنْ عَائِشَةَ : أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ : « بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ ، وَ بِئْسَ ابْنُ العَشِيرَةِ » ، فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فِي وَجْهِهِ وَ انْبَسَطَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ ، قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَ كَذَا ، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَ انْبَسَطْتَ إِلَيْهِ ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ : « يَا عَائِشَةُ ، مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ » .

انظر أخي المسلم إلى هدى النبي ، و كيف أنَّه ألان الحديث للرجل لما في ذلك من مصلحة تخص الدين .

و يروى أنَّ هذا الرجل كان عيينة ابن حصن ، و كان من وراءه قومه و هو مسموع الكلمة عندهم فخشي النبي أن يغضبه فيرتد هو و قومه .

و المداراة هي بذل الدنيا من أجل الدين أو الدنيا ، النبي هنا بذل له حسن العشرة لكنه لم يمدحه ، لأن مدح أهل السوء مداهنة ، و المداهنة لا تجوز شرعًا ، و هي بذل الدين من أجل الدنيا .

اللهم أرنا الحق حقًا و ارزقنا إتباعه و أرنا الباطل باطلًا و ارزقنا اجتنابه .


رسول الله
من إصدارات موقع نصرة رسول الله
"صلى الله عليه وسلم"
Rasoulallah.net